

الإصدار: 87

لقــاءٌ قريب

رواية

الروائية مياسة علي النخلاني







لقــاءُ قــريب

- روايـة -

مياسة علي عبده النخلاني

الإصدار: 87 (مارس 2014م / ربيع الثاني 1435هـ)

الإخراج الفني: محمود محمد أبو الفضل

الروائية مياسة علي عبده النخلاني

من مواليد اليمن، خريجة اللغة الإنجليزية وآدابها، كاتبة وصحفية بالعديد من المجلات والمواقع الإلكترونية باللغتين العربية والإنجليزية، تعمل أخصائية إعلامية بالإدارة الإقليمية لإحدى الشركات بإقليم اليمن.



نهـر متعـــدد... متجـــدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة - رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 22487310 (965+) - فاكس: 22445465 (965+)

نقـــال: 99255322 (965+)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

موقع «روافد»: www.islam.gov.kw/rawafed

الطبعة الأولى - دولة الكويت

مارس **2015** م / ربيع الثاني **1435**هـ

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: **www.islam.gov.kw**

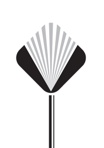
رقم الإيداع بمركز المعلومات: **165 / 2013**

تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: **451 / 2013**

ردمك: **978-99966-54-13-8**


بسم الله الرحمن الرحيم



تصدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

لايجادل أحد في أن الرواية أضحت فنا يستقطب العديد من المحبين والمتفاعلين ودور النشر، ولعل ذلك يرجع إلى قدرة هذا الفن على تسجيل تفاصيل الحياة واستيعاب أوجه التضارب الحاصل في مصالح الشخصيات ورؤاها وفلسفتها ومواقفها من الأحداث .

وبهذه الاعتبارات، فإن الرواية تتحمل مسؤولية كبرى في التوجيه الفكري والوجداني والاجتماعي، فهي قادرة، عبر الشخصيات والحوارات والسرد ووصف دواخل الأبطال، على كشف علل الواقع، وتقديم الحلول المساعدة على الخروج من الأزمات، مما يسمح بالقول إن الرواية مؤسسة اجتماعية بامتياز.

وقد سعت الروائية مياسة النخلاني إلى رصد ظاهرة اجتماعية تعاني منها العديد من الأسر، وتتمثل في اشتغال الآباء بوظائفهم، وإهمال إدراك الحاجيات النفسية والاجتماعية لأطفالهم، مما ينعكس سلبا على واقع الأسرة، وقد يهدد لديها قيم السكينة والاستقرار، فيشرع كل واحد في تشييد عالمه الخاص، فيضعف التواصل الأسري، ويصير أفراده مثل جزر متنائية لايجمع بينها إلا التوتر والصدام.

ويسر إدارة الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت أن تقدم هذا الرواية إلى جمهور القراء الكرام والمهتمين، إسهاما منها في خدمة الأدب البناء الهادف إلى توجيه الأفراد والمجتمع إلى القيم الإيجابية، سائلة المولى أن ينفع به، وأن يجزي مؤلفتها خير الجزاء...

إنه سميع مجيب.

1

قرعت الشمس نواقيسها معلنةً رغبتها في الرحيل، وتعلمها بطريقة أو بأخرى أن عليها الذَّهاب هي أيضا، لم تلمها أو تطالبها بالبقاء أكثر، لم ترغب بمعاندتها كما تفعل دائمًا، فلم يعد بمقدورها التخلي عن خدماتها التي تمن بها عليها طواعية دون إكراه، يكفي أنها تؤنس وحدتها، وتنير لها طريق العودة إلى حيث لا أحد سوى الذكريات وصدى ضحكات مركونة في إحدى زوايا ذاكرتها التي سكنتها آهات وداع الأحبة وانتظار الغد الذي لا يعدها سوى بمزيد من الانتظار.

هي وحدها من لا يصبر على جفائها ساعاتٍ قليلة، فما إن تغيب حتى تعاود الابتسام لها فاتحةً لها ذراعيها تضمها إلى حضنها الذي لا يتلاشى دفئه.

وضعت الكتاب جانبًا، وانشغلت بتأمل امتداد البحر المضطرب أمامها – طقس الوداع اليومي الذي لا تغيره – فكيف لها أن تذهب دون أن تتجاذب معه ومع هدوئه المضطرب حديث الوداع الصامت؟!

حبٌّ من نوعٍ خاص يربطهما، فامتداده اللامتناهٍ ما هو إلا جسر ينقلها في جولاتٍ طويلة بين تفاصيل ذاكرتها المتخمة بعبق الأحبة،

طالما أغراها للغوص في حِضنه الدافئ ببرودته منذ نعومة أظفارها قلبًا وروحًا وجسدًا، عجزت عن قهر انجذابها نحوه رغم محاولته الحثيثة لضمها إلى أعماقه المظلمة بدهاء مريب...

2

كان البحر هادئًا كعادته في مثل هذه الساعة من النهار، تتهادى أمواجه بنعاس وديع، وكعادته هو أيضا كل إجازة اصطحبها والدها إلى شاطئه الهادئ، حيث يطيب له أن يستجم بمعية ابنته الوحيدة، بعد ساعاتٍ طويلة من اللعب والمرح، قرر أخذ قيلولة قصيرة تحت لِحاف من الرمال الدافئة ساعدته بنفسها، وعملت على تغطيته بالكامل فيما عدا مجالٍ بسيط عند فتحتي أنفه وفمه...

- «لا تفكري بالسباحة»
- «حسنا!»
- «سلمى!»
- «حاضر يا أبي لن أفعلها»

رمقها بنظرة تحذير وشك قبل أن يغمض عينيه في محاولة منه للحصول على بعض الراحة، انشغلت هي بجمع ما تجده أمامها من قواقع وأحجار ملساء؛ لتضمها إلى مجموعتها الجميلة التي خصصت لها مكانًا خاصًا في دولابها، وحين اكتفت اقتربت من الشاطئ، تتأمل حركة أمواجه المنتظمة، وتأخذ استراحة هي الأخرى تحت دفء الشمس، شعرت أنها تغريها بالدخول واللعب معها كما تفعل دائما، لكن تحذير والدها لا يزال يطن في أذنيها، استرقت النظر إليه فوجدته ساكنًا لا يتحرك.

- «لن أبتعد كثيرًا»

همست بها، وهي تنظر نحوه بحذر، وكأنها تخاف أن يسمعها، وبسرعة ترسم بقدميها الصغيرتين خطوطًا منتظمةً وأحيانًا عشوائيةً على وجه الماء الشفاف، وحين تعبت من تعكير مزاجه الهادئ، تقدمت خطواتٍ إلى الأمام، أغمضت عينيها، وسلمت جسدها الصغير لحركة الموج، تشاركها حركاتها الرتيبة والهادئة، حتى شعرت أنها موجة صغيرة، بل كأن الموج ذاته يسبح في أعماقها، ويسلبها قدرتها على التركيز.

وأخيرا فتحت عينيها لتدرك أنها ابتعدت نوعًا ما عن الشاطئ وبالكاد تلمس الرمل الناعم بقدميها الصغيرتين، حاولت الوقوف، فعجزت، ومع شعورها بالخوف غضب عليها البحر وراح يجذبها بقسوة إلى عمقه، وكأنه ينتقم منها أن تخلت عنه ورغبت في مغادرته بهذه السرعة.

حاولت الاستنجاد بأبيها، لكن ملوحة الماء لذعت حلقها وأخرستها، وتمادى يغمر أنفها وعينيها، في اللحظة التي كادت يداها تتوقفان عن المقاومة، مستسلمة فيها لبطشه نبذها خارجًا أو بالأحرى رفعتها يدان قويتان، كانت تسعل بقوة، وتحاول توسل أي نسمة هواء تمر من أمامها لتودعها رئتيها المنهكتين.

- «فتاة عنيدة!»

وضعها على الرمال وهو يتحسسها بهلع واضح.

- «لم أقصد أن أبتعد، كنت ألعب قريبًا من اليابسة، ولا أعرف كيف سحبني إلى الداخل»؟!

- «أعلم...»

- أكمل وهو يلقي بجسده على الرمال:

- «لهذا حذرت وأحذرك مرارًا لكنك لا تسمعين الكلام، فهكذا هو البحر يا سلمى، يشدنا نحو أعماقه المظلمة بسحر عجيب، يشعرنا أننا إحدى موجاته، بينما في الحقيقة ذلك هو الطعم الذي يداعب به أرواحنا لتغامر بالاستسلام له وما أن تلتقمه؛ حتى يبتلعها هو بسرعة قبل أن تستوعب ما حدث»

- «لكن لماذا نحبه، وهو غدار؟!»

سألته وهي تعتدل في جلستها:

- «لا فكرة لدي لكن له جاذبية خاصة لا يسهل مقاومتها مع أنه لا يحمل لنا إلا الموت المحقق... مع ذلك يبقى البحر الوحيد الذي نعجز عن تجاهل سحره، خاصة مع من ارتبط به منذ طفولته مثلي ومثلك»».

3

كان محقًا تمامًا، ربما هي الروح التي لا تهوى إلا المغامرة ومواجهة المجهول، فمهما بدا الشاطئ جميلًا ودافئًا وآمنًا، لكن لا يقنعها، ولا يشبع شغفها للجمال الذي تخفيه الطبيعة لنا إلا دفء المياه الواسعة والمتجددة رغم ملوحتها.

أخذت نفسًا عميقًا وراحت تتمتم بخفوت «ترى هل هو هناك الآن على الجانب الآخر، يودع الغروب كما أفعل أنا، أم تراه قد نسي حبه القديم أيضا من ضمن ما نسي»؟

ابتسمت لمجرد التفكير أنه يشاركها هذه اللحظات الجميلة حتى إن كان على الطرف الآخر من الأرض، تابعت هيجان الأمواج مع فارق بسيط ما عاد لديها ما تقوله لها، فقد أعلنت ذاكرتها العصيان تزامنًا مع إعلان الحظ تمرده عليها هو أيضا، ليتركها بقايا روح منكسرة، تطيل التيهان في بحر هادئ لا موج فيه، ولا حياة تنبض في أعماقه، ولم يعد هناك أي وجود لتلك اليدين القويتين؛ لتعيدها إلى بر الأمان، فلا هي استطاعت العودة بمفردها ولا هي قادرة على التوحد مع البحر لتتخلص من مشاعر الغربة التي تعج بين منحنيات روحها المتعبة.

تمضي الساعات الطويلة، وهي تتصفح سطور مذكرات قديمة- شذرات من روح غاب صاحبها وترك أوراقها التي استباحت

السنوات بياضها، رغم ذلك بقيت أحرفها تحلق في عالمها، تظلها، وتستظل بها - تقلب أوراقها الصفراء، حينًا تقرأ وأحيانًا كثيرة تتيه في الفراغ الصغير بين السطور في رحلة طويلة لا يعيدها منها إلا رذاذ الماء المالح يداعب وجهها، ويذكرها بموعد الرحيل، وأحيانًا صياح النوارس وهي تعود إلى أعشاشها بعد عناء يوم طويل..

4

- «أريد واحدًا من هذه الطيور يا أبي».. قالتها، وهي تشير لطائر نورس يحلق بالجوار
- «وماذا ستفعلين به؟»
- «سآخذه معي إلى البيت»
- «لكن النورس لا يغادر البحر يا أميرتي»
- «سنصنع له بحرًا صغيرًا في حديقتنا»
- «من تقصدي بـ... سنصنع!»
- «أنت بمساعدتي طبعا»
- أطلق ضحكة كبيرة وهو يقول:
- «وما ذنبي، أنا لا أتحمل تبعات رغباتك المجنونة»
- «هيَّا يا أبي وافق أرجوك»
- «حسنا! لا مشكلة لدي، سأصنع لك بحرًا صغيرًا، لكن أين سنضعه هو؟!»
- «من؟»
- «النورس».. قالها بتذمر مصطنع
- «في القفص»

- «أها.. اقتربي أكثر يا حلوتي الصغيرة... اقتربي مني».

حملها في حجره، وبعد أن أودع خدها قبلة كبيرة، أكمل: «أتدرين يا سلمى، أحيانًا كثيرة أشعر أن طيور النورس ما هي إلا بعض أمواج البحر»؟

- «ماذا؟! هل تمزح معي؟»

- «ولم الاندهاش؟ فكل شيء ممكن في هذا العالم - على الأقل بالنسبة لي- فكلٌ منا يقرأ الواقع حوله كيفما يريد، ولا ضير بأن تكون نظرتنا مغايرة عما يراه الآخرون وهذا ما أقوم به دائمًا.

كلما أراقب النورس أتخيل أن بعض أمواج البحر رغبت يومًا في التحرر من قبضته والتحليق عاليًا؛ لترى العالم كيف يكون من الأعلى، وتعانق الأفق كما نعانقه نحن بأبصارنا.

لعل مزاجه كان جيدًا ذلك اليوم، فقرر البحر أن يعطي تلك الأمواج المتمردة حريتها التي طلبتها، فأطلقها وحررها بالكامل لتطير كيفما تشاء، ربما أعجبها الأمر في البداية، لكنه الشوق إلى الموطن الأصلي لا يفارق القلب، ومهما حلَّق الجسد بعيدًا لابد أن يدميه الحنين، ويقلق مضجعه.

لذا عادت إليه صاغرةً تطلب منه العفو والسماح لها أن تعود إلى حضنه الواسع كإحدى موجاته - فمهما كان طعم الحرية لذيذ فدفء الوطن ألذ - لكنه رفض طلبها فبعض ما يذهب لا يمكن أن يعود، ومَن تمرد مرة فقد يتمرد مرة أخرى، ويغري البقية

بالتمرد أيضًا.

لم يقبل البحر أن تعود إليه طيور النورس كما كانت في السابق أمواجا متعالية...، لكنه سمح لها أن تبقى بالقرب منه تحلق وتطير وتبني أعشاشها على الصخور القريبة منه، تقتات على ما يهبها، لكن لا تبتعد كثيرًا؛ كي تعيش، فهي تستمد حياتها منه، وإن ابتعدت تموت، وما امتداد البحر إلا امتداد لحياتها»

نظر إليها وهو يبتسم «ها.. ألا تزالين عند رغبتك!»

هزت رأسها نفيًا، وهي تتابع الطيور الصغيرة تحلق عاليا.

- «سأكتفي بمراقبتها هنا...»

شعرت لوهلة أنه على حق، لونها انعكاسٌ للبحر، وحركتها تحاكي حركة الأمواج، كما أنها لا تبتعد أبدًا عن ذلك المحيط الصاخب.

أعجبها منطقه ذلك اليوم، فما أجمل أن نقرأ الواقع بموجب نظرتنا الخاصة بغض النظر عن كونها واقعية أم لا!! المهم أنها تترجم جمال ما حولنا، نبث الحياة في كل ما نراه أمامنا، ونتيح لأرواحنا اكتشاف الجمال الكامن فيها، مهما بدا صغيرًا أو تافهًا.

كبرت وعرفت أن النوارس ما هي إلا طيور بحرية مثلها مثل البجع ومالك الحزين والبطريق، تعيش بالقرب من البحر لأنها تقتات على السمك، لكن كلما سمعت أصوات النورس، وهي تحلق فوق البحر، تشعر أنها لا تزال تتوسله؛ ليصفح عنها ويعيدها إلى

حضنه الواسع.

- «وأنا؟!» سألته بعد شرود قصير
- «ما بك أميرتي الصغيرة؟»
- «هل ستقسو علي، وتتركني كما فعل البحر مع النورس؟!»
- «وهل أجرؤ؟!»

ابتسمت له وعادت إلى شرودها...

5

سرت قشعريرة في أوصالها فها هو النسيم قد بدأ بالعزف على أوتار المساء الباردة، لفت معطفها حول جسدها الناحل جيدًا وراحت تنصت باهتمام... كم يحلو لها أن تستمع للموسيقى التي يشارك الجميع بعزفها - كما علمها والدها - تستغرب كثيرًا لماذا لم يصبح موسيقارًا، أو رسامًا، أو حتى كاتبًا فهو يجيد لمس الجمال الخفي حوله كما لا يفعل كثيرون، كيف استطاع إهدار سنوات عمره في دراسة الحقوق – عالم القوانين والقواعد الصارمة التي لا تقبل التأويل – وهو الذي يظهر وكأنه لا يؤمن بأي قانون سوى قانون اللامنطق؟!

ليكمل وأد روحه المنطلقة في مهنة المحاماة والمحاكم والانضباط وهو الذي يؤكد دائمًا أن العشوائية والانتقائية فن جميل لا يجب العبث به وتقييده في إطار معين؛ كي لا يفقد رونقه الخاص.

«عندما انتقلت مع والدي للعيش هنا، كنت في مثل عمرك تقريبا، قبلها لم أكن أعرف عن البحر شيئًا سوى ما أراه في شاشات التلفاز أو الصور.

وجدته أفضل بكثير مما يحاولون تصويره، وسريعًا توطدت بيننا علاقة قوية، بمجرد أن أعود من المدرسة، أرمي حقيبتي بجانب الباب وأتي إلى هنا، ممضيًا ساعاتٍ طويلة فوق تلك الصخرة هناك

لا أفعل شيئا سوى المراقبة، حتى أصبحت قادرًا على استيعاب اللغة التي يتحدث بها الجميع: البحر، الموج، النورس، الشمس، القمر، وحتى الرمال.

وأحيانًا أشاركهم العزف بغيتاري»

- «هل تعزف على الغيتار؟»

- «ليس الآن.. كان ذلك قبل سنوات طويلة، قبل حتى أن أقابل والدتك، ثم أن يجيد الشخص العزف، أو يحب الموسيقى لا يعني بالضرورة أن يتخصص في هذا المجال، أو يمضي عمره أسير هواية طفولته، فكثيرًا ما نتعرض لمواقف تجبرنا على تجاهل فترة من أعمارنا مهما بدت جميلة أو رائعة»

أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يكمل بصوت خافت «لا أدري لماذا الحقوق دون غيرها وقع عليها اختياري بدلًا عن الموسيقى، رغم معارضة والدي الشديدة؟ كان يقول لي أنت تقتل روحك بقرارك هذا فأنت أرق من أن تكون محاميًا أو قاضيًا، من باب التعاطف كان يسميها رقة بينما كنت مقتنعًا في أعماقي أنها ضعف وانهزام، ربما لهذا كرهت الموسيقى ورميت تلك الآلة الصغيرة، ومن يومها لم أفكر فيها، توقفت عن العزف تمامًا لكني واصلت الاستماع للموسيقى التي تعزفها أنامل الطبيعة.

أدركت متأخرًا أن قراري لم يكن صائبًا، لكني اتخذته، وكان علي أن أكمل ما بدأت»

أشاح ببصره وراح يحدق في الأشياء، وكأنه يحاول الابتعاد عن نظرات الفضول التي غزت عينيها أو إخفاء ذلك التضارب الذي يعصف به من الداخل.

فقراره الذي اتخذه في لحظة تفكير طائشة؛ لتغيير ذاته ومسار حياته لم يكن ناجحًا – هذا ما كشفته له الأيام - بل كثيرًا ما كان يوقعه في مواقف يناقض من خلالها نفسه، فلا هو قادرٌ على العودة لما كان عليه، ولا هو قادرٌ على تقمص الشخصية الجديدة التي قرر أن يكون.

صحيح أنه بشكل أو بآخر نجح في إثبات نفسه في قاعات المحاكم أو في بعض مواقف حياته، إلا أنه عجز تمامًا عن تناسي تلك الروح الحالمة والهادئة التي تسكن أعماقه، كبتها كثيرًا، حتى انفجرت في وجهه بلحظة غفلة منه، وأعلنت تمردها على كل القوانين التي قيدها به دون إرادتها، وجعلته يدفع غاليًا ثمن حرمانها مما تحب أن تكون.

أسوأ ذنب قد يقترفه الإنسان بحق نفسه أن يسيء فهمها، ويخنق أنفاسها بتهمة أنها ليست قوية بما فيه الكفاية، فليست القوة بالصوت المرتفع أو الشخصية الصلبة فقط.

وأسوأ من ذلك نبذ الجمال الحقيقي الذي يمد الإنسان بقوة خفية نابعة من أعماقه ساعيًا وراء قوة مصطنعة ليست أصيلة فيه فلا هو حافظ على جماله الخفي، ولا تمكن من استحكام قبضته مما اكتسبه...

6

- «على الأقل علمني فن الإنصات لهذه الموسيقى الرائعة» تمتمت بها، وهي تصغي إلى موسيقى الغروب، سيمفونية حزينة تتخللها بعض المقاطع الصاخبة بتناقض جميل، كانت تهرب بين نغماتها من كل شيء للاشيء... من عالمها الملموس إلى عالم ليس موجود سوى في مخيلة والدها ومخيلتها فقط.

تنساب الشمس نحو الأفق وهي تعزف بأوتارها ألحانا ذهبية على امتداد البحر - من الشاطئ إلى العمق - فتسري في جسده الناعس ارتعاشة خفيفة في ظاهرها قوية في باطنها تحرك معها جبال الأمواج من العمق إلى الشاطئ في ردة فعل عكسية، تتعالى الأمواج ملقية بثقلها على الرمال بتموجات متتالية وقوية، وكأنها تعلن رفضها لهذا الانصراف، ربما أصيبت بالأرق أو لعلها تخشى الظلام، وتطالب الشمس بالبقاء أكثر.

ولأنها لا تستجيب لرغبتها الجنونية، يتمادى في عناده، ويحاول الموج التمرد على البحر والانسلاخ عنه، فيواصل التجديف نحو الشاطئ بتهور وغضب يُخيل للناظر إليه من بعيد أنه ينوي الابتعاد عن البحر والتحرر كليا عن قبضته – كما فعلت النورس يوما ما – لكن يبدو أن البحر قد سئم إعطاء مزيدٍ من الحريات فتراه يرفض بعناد، ويوقفه عند حده.

أو لعل الموج حينها لا يعي ما يريد تحديدًا، وكل ما يجول بخاطره أن يعلن تمرده على قوانين الطبيعة فحسب مستعرضًا قوته الذاتية.. فأحيانا عندما يستشعر البعض القوة الساحقة.. كل ما يفكرون به هو إظهار آثار تلك القوة أحيانًا كثيرة لمجرد التباهي فقط، متوهمين أن قوتهم لا تُقهر، ولا يملك أحد الحق بسلبها منهم – لعل الموج حينها كان يفكر على هذا النحو - راحت نوبات غضبه تتعالى نحو الشاطئ، لكن هيهات له أن ينجح، فصحيح أن البحر يعطيه المجال ليغضب ويكيل نوبات غضبه كيفما يشاء، لكن يبدو أنه اشترط عليه ألا يبتعد كثيرًا، ليس استبدادًا به وإنما خوفًا عليه ومحافظًا على طاقته، فمهما كانت قوة الموج القادرة على ابتلاع أكبر السفن في لحظة واحدة، لكنه يفقد جبروته إن ابتعد كثيرًا ليصبح لا شيء، فهو يستمدها من البحر، وليست ذاتية كما يُخيل له.

لذا ما أن تصل جبال الموج الغاضبة إلى الرمال الناعمة، حتى تصدمها قوة مقاومتها، وإذ بشحنات الغضب تتبدد بين تفاصيلها الرطبة، تفتح الأخيرة ذراعيها لمزيد من الهيجان الغاضب في عناد وتحد، فبقدر ما يغري الشاطئ الموج بنعومته بقدر ما يصدمه بالقوة التي يخفيها خلف ذلك القناع الخادع. وعندما لا يجد بدًا من هزيمته يحول الموج جمّ غضبه نحو الصخور، لعلها تكون أقل تهاونًا وأقل ليونة، فتتكسر صلابتها تحت وطأة ضرباته المتتالية، لكن لا شيء يتكسر سوى حلمه بالانتصار، فمهما كانت الشقوق والفجوات التي تتخلل الصخور الناتجة عن غضبه

عليها أو عوامل التعرية، إلا أنها لا تتكسر فهي الحارس الأمين والصديق الوفي للبحر.

وهكذا وبعد معركة شرسة متكررة جولاتها، لا تتغير فيها الأدوار، فالموج يتخذ موقف المهاجم والمتمرد، إلا أنه يؤدي صاغرًا دور المنهزم والمندحر دائمًا، يعيش حياته في مد وجزر لا يكل، ولا يمل البحر أيضًا من تمرده الطفولي الطائش.

وبعد أن يُسدل الستار على مسرحيته المسائية، يعود الموج منكسرًا إلى حضن البحر الواسع لينام ليلة هادئة غير آبه للشمس أن تبقى، أو ترحل.

وفي أثناء انكساره يصدر موسيقى حزينة بتداخل مع إيقاعاتها نوح كبريائه المذبوح على هامات أحلامه بالحرية المطلقة، وتعاطفًا معه تشاركه أطيار النورس العزف بنغمات صاخبة، فهي تحب الموج؛ لأنه رفيقها طوال اليوم وتحزن عندما تراه منكسرًا حزينًا، حتى وإن كان هو المخطئ - من باب انتصر لأخيك ظالمًا أو مظلومًا - تواسيه، وهي تعود إلى أعشاشها، وتعزيه بأن الظلام لابد أن ينقضي بعد ساعات قليلة، وتعود الشمس أقوى وأكثر إشراقًا ولعلها تتمنى له ليلة سعيدة..

7

أوشكت لوحة الغروب الجميل أن تكتمل خطوطها الأخيرة، لا ينقصها إلا ظلهما، وهما يخطان على الرمال خطواتهما بعبثية، وصدى ضحكاتهما يتسلل إلى خلجات روحها، فتعيدها إلى الشاطئ مجددًا، أنصتت وهي تراقب انعكاس ظلهما وهما يعملان بهمة عالية.

-«أبي أين أضع هذه؟!»

-«ضعيها هنا وتعالي لتساعديني يكاد بناؤنا الجميل أن يكتمل» قالها وهو منهمك كليًا بإتمام اللمسات الأخيرة على قلعة من الرمل استغرقت منهما ساعات لبنائها.

سكبت القواقع الصغيرة التي جمعتها بعد بحث طويل بجانبه وانضمت إليه تساعده في التزيين.

-«أخيرًا انتهينا».

هتف بنشوة، وهو يمسح قطرات العرق من جبينه، وكأنه انتهى للتو من تأدية مهمة شاقة لا مجرد فاصل ترفيهي مع ابنته الصغيرة، في حين راحت هي تصفق، وتدور حوله و حول قلعة الرمال.

-«الآن اختاري غرفتك التي ستعيشين فيها، وأنا سأختار التي

تجاورها؛ كي أحميك في المساء من اللصوص الذين يريدون خطف أميرتي الصغيرة»

- «أحبك يا أبي...»

شعرت أنها تعيش إحدى القصص التي يحكيها لها؛ حتى يتسلل النوم إلى عينيها.

أكملا توزيع الغرف، وجلسا يأكلان، ويراقبان انجازهما الجميل.

سألته بفضول:

- «وأمي هل سنعطيها غرفة؟»

صمت للحظة قبل أن يجيب

-«بكل تأكيد لكن عليها أولًا أن تتفضل علينا من وقتها، وتأتي لتختار غرفتها بنفسها»

ابتسمت له وأكملت أكلها، وهي تراقب قصرها الجميل، فقلما تتواجد والدتها معهما في أثناء زيارتهما الكثيرة للشاطئ، على الأقل ليس بعد ذلك اليوم الذي انتهى بغروب حزين..

8

-«سلمى لا تبتعدي!»

صرخت فيها والدتها محذرةً كعادتها:

-«دعيها تلهو كما يحلو لها.. ألا تجيدين شيئًا غير إلقاء الأوامر؟!»

أتاها صوت والدها كضوء أخضر؛ لتواصل الجري نحو البحر بسعادة بالغة.

-«أخبرتني أنها كادت تغرق الأسبوع المنصرم»

-«هي تهول الأمر نوعًا ما، كنت قريبا منها بما فيه الكفاية ولم تصب بأذًى...»

قالها بضيق واضح فلا يعجبه اتهاماتها المبطنة أنه أب مهمل.

-«بالمناسبة... سأغيب ثلاثة الأيام القادمة لحضور المؤتمر المقام في لندن»

اعتدل في جلسته، وقال باندهاش مصطنع «أي مؤتمر؟»

-«لا تتصنع الدهشة؛ فالجميع في المكتب يعلم به منذ أسابيع، وقد طلب مني المدير أن أذهب نيابةً عنه؟»

-«ثم لماذا أنت؟»

-«ماذا تقصد؟»

-«لماذا لم يختر أحدًا سواك، فالمكتب يعج بالمحاميين»

-»أنت مثلا!»

«.......»

-«إذًا؟»

-«لست موافقًا؟»

-«سمير؟ لماذا تأخذ الأمور بهذه الحساسية؟! ظننتك أنضج من هذا»

-«وهل تشعرين أنك أمام فتًى مراهقٍ؟»

-«لا أقصد ذلك، وإنما...»

-«ألا تلاحظين أنك أصبحت تديرين أمورك الخاصة باستقلالية تامة، بل وتتعدينها للقرارات التي تخص كلينا، وكأنك تعيشين بمفردك، فلا حضور يذكر لي»

صمت لبرهة قبل أن يكمل بحدة أكثر:

-«صحيح أن المدير يعتمد عليك في أمور كثيرة – لا أحد ينكر ذلك - لكن تذكري جيدًا قبل أن يكون هو مديرك في العمل فأنا

زوجك يا ندى، أتمنى ألا تنسي هذه المعلومة، وقبل أي خطوة تقومين بها لا بد وأن نتدارس الأمر بيننا، وهل ينفع الأمر أم لا؟

تخبريني الآن أنك ستسافرين إلى أوروبا في صباح الغد أو بعده لا أعلم تحديدًا، بمفردك طبعًا ولمدة ثلاثة أيام هكذا وبكل بساطة، وكأني مجرد حائط أو كرسي في البيت»

-«ماذا تعني، هل أمهد لك قبله بشهر مثلا؟!»

بدا الضجر واضحًا عليها، وهي ترى النقاش يسير في غير صالحها.

-«أعلمك المدير بانتدابك للذهاب قبل أسبوع - حسبما وردني من الآخرين طبعا - انتظرتك أن تخبريني بذلك فور خروجك من مكتبه، لكن للأسف لم يحدث، بل رتبت كافة أوراقك وجهزت حقيبة سفرك وآتيت اليوم؛ لتلقي علي تحية الوداع - مع السلامة أنا ذاهبة- هكذا بكل بساطة.

أحيانا كثيرة أنسى أني أتحدث مع زوجتي، وأن من يحدثني هي زميلتي في العمل التي تشعر أنها تتفوق علي»

-«إذًا.. هكذا قل إنك تغار من التقدم الذي أحرزه في العمل، بينما أنت بالكاد يشعر بك أحد»

-«تتعدين حدود اللباقة في الحديث»

رمقها بنظرة غاضبة وهمَّ بالمغادرة..

-«والسفر؟!»

توقف ودون أن يلتفت إليها أجاب:

-«إن كنت قد أخذت الإذن مني للتو فلست موافقًا، ولا مجال للنقاش، أما إن كنت تخبرينني من باب الإعلام ليس إلا فهذا شأن آخر»

9

أعادها من شرودها انهيار قلعتهما الصغيرة تحت وطأة تدافع الأمواج نحوها

-«أبي! بيتنا الجميل...»

كانت تشير نحوها، وهي تبكي، احتضنها والدها، وهو يضحك:

- «لم كل هذا البكاء! إنه مجرد بناء من الرمال، سنعود في الغد ونبني أفضل منه».

-«كان جميلًا جدًا يا أبي...»

-«معك حق!»

قاوم ابتسامة حزينة وهو يكمل:

-«فما أصعب أن يُدمر بناء أخذ منا وقتاً طويلاً لنشيده»..

-«أبي!»

-«لا تقلقي يا حلوتي في المرة القادمة سنبنيه بعيدًا جدًا، حيث لا تصل الأمواج إليه».

وافقت على كلامه وراحت تمسح دموعها، وتتابع تعبهما طوال النهار وهو ينهار أمام عينيها، كما راقبت ذلك اليوم والدتها

وهي تعود إلى البيت غاضبة، ومن يومها لم تخرج للتنزه معهما، بل بالكاد أصبحت تبادل والدها الحديث.

10

-«ربما هي عقدة نقص!»

همست بها وهي تحاول سحب نفسها من الانزلاق أكثر بين دروب ذاكرتها دون جدوى، وكأن طقوس الغروب المتضاربة قد حركت في أعماقها غروبا من نوع آخر.

فلا يتعبها أكثر من محاولة، فهم لماذا آل الأمر إلى هذه النهاية التي لا تنتهي فصولها – وهل حقًا هي النهاية المحتومة التي ينبغي عليها معايشتها، ولا تملك حق التمرد عليها - وفي كل مرة تبحث عن شماعة تحملها اللوم كاملا، تجد أنها ترمي باللوم على طرف آخر كلما أعادت ترتيب الأمور؛ حتى بات الجميع مذنبين وضحايا بنفس الوقت، وربما هم كذلك بالفعل...

الحب... الزواج... الأطفال... المسؤولية، كلمات بسيطة بحروفها كبيرة بمعانيها، تشكلت بجانب بعضها البعض بتناسق جميل لتخلق معنى الحياة، متجاوزة العوالم والمجتمعات المختلفة.

يبدأ الأمر بالحب، يمر بانسيابية ونعومة بين حروف المصطلحات الأخرى حتى يصل إلى المسئولية التي تكون نتيجة حتمية للزواج وإنجاب الأطفال، وهنا تكون النقطة الفاصلة بين المواصلة أو التوقف التام، بين تحمل تبعات الحب، والاختيار، أو الانسحاب بتخاذل، وتحميل الجانب الآخر اللوم بغض النظر عن النتائج ومدى أضرارها.

فما أن يتجاوز الطرفان مرحلة الإعجاب، وتتسلل إلى قلبيهما مشاعر الحب التي لا تعرف الاستئذان حتى يجدا أنهما قد شرعا في تأسيس عش الزوجية الذي يبدأ صغيرًا، ثم يكبر يومًا بعد يوم، وتكبر معه التبعات.

ربما خططا لذلك جيدًا، ولعلهما لم يفكرا حتى كيف سيكون الأمر بعد تجاوز لحظات الانبهار، فعندما يستوطن الحب القلوب تعمى العقول ولا تفكر في شيء سوى المحبوب وروعة حضوره وإكمال ما تبقى من الأيام القصيرة معه - والحب أعمى - كما يحلو للبعض وصفه، بل هو كذلك؛ لأنه يجبر العقل على تسليط الضوء على أجمل ما في الجانب الآخر بينما يتفنن في إخفاء العيوب والنواقص، فما أن تزول المسافات البعيدة وترتشف القلوب من كأس واحد، وتستظل تحت سقف واحد؛ حتى يستعيد العقل أخيرًا قدرته على التفكير كما هي عادته، ليكتشف مع مرور الأيام أنه أمام إنسان آخر ليس الذي كان يتصوره، أو يصوره له القلب، إنسان عادي ككل البشر تغلب عيوبه ميزاته في بعض الأوقات – فالكمال لله - وأمام الأمر الواقع قد يجد العقل نفسه مجبرًا على تقبل الأمر المفروض، محاولا حب الشريك بكل ما فيه، فهو ذاته يعاني من القصور والنقصان.

تكمن المشكلة الجوهرية في تلك اللحظة التي يعلن فيها تمرده، رافضًا أن يضعه القلب أمام الأمر الواقع، لكن بما أن القدر قد قال كلمته ولا مجال للتراجع، أو أن التراجع قد ينضوي على ضرائب كثيرة لا قبل له بتحملها، فلا يجد حلا إلا أن يحاول ويجاهد على تغيير المحبوب لتنطبق عليه نفس المواصفات التي وضعها له في مخيلته محاولا نقل الصورة من دهاليز المخيلة الضيقة إلى أرض

الواقع - حرفيًا – دون أدنى تغيير أو تحريف.

لكن! من السهل جدًا تكوين انعكاس مغاير في المخيلة لصورة واقعية، ويكاد يكون مستحيلا تغيير شخص وفق صورة خيالية صنعناها نحن له.

ولأن للعقل قوة كبيرة في فرض سيطرته بعد تلاشي الانبهار الأول، يجد الحب نفسه مجبرًا على الانسحاب بخيبته بعيدًا بهدوء، ململمًا بقايا نبضه من قلوب ما عاد له مكان فيها، يرحل بعيدًا تاركًا القلوب تحت سطوة العقول؛ لتقول كلمتها دون منازع...

فلو لم يكن الأمر كذلك لما سقط قلب الشاب الهادئ الحديث عهدًا بالمحاماة والحب معًا أسيرًا مكبلَ الحركة بين سراديب قلب زميلته الجديدة – صاحبة القلب الحديدي – كما كان ينعتها زملاؤه في المكتب.

وكما يبدو فقد باغته إعجابه الشديد بها وبشخصيتها الفولاذية – تلك التي مهما حاول لا يستطيع أن يكونها- فلم يجد متسعًا من الوقت للتفكير في مدى توافقهما معًا أو حتى انسجام روحهما المتنافرتين في قالب واحد لتأسيس حياة مشتركة طويلة الأمد، بل لا يفترض أن تكون لها نهاية...



11

-«تبدو اليوم على غير طبيعتك؟!»

همس له صديقه أثناء وضعه الملف على مكتبه.

-«من أي ناحية؟»

-«سمير لا تحاول التغابي علي، فمنذ أيام، وأنت لا تطيق الجلوس على مكتبك من التوتر والقلق واليوم ابتسامتك تلتهم نصف وجهك»..

قرب كرسيه من صديقه، وهو يقول بصوت أكثر خفوتًا: -«ها... أخبرني ما الأمر فعيناك تقولان الكثير»

-«حسنًا!»

وبوجه خجول أكمل:

-«سنتزوج أنا وندى قريبًا»

-«من؟... ندى زميلتنا»

هز رأسه إيجابًا :

-«أنت لا تمزح؟!»

تغيرت ملامحه فجأة واعتدل في جلسته:

-«ماذا تعني؟! أهناك شيء لا أعرفه؟!»

-«لا... لا تفهم كلامي خطأ... لكن...»

-«لكن ماذا؟»

-«طبعًا هذه حياتك، ومن حقك أن تختار الإنسانة التي تحبها، لكن ندى بالذات اعذرني يا صديقي، لكن لا أجد أي توافق بينكما، أم نسيت أنك لوقت قريب كنت من أكثر المنتقدين لها وطريقة تصرفاتها خاصة بعد موقفها الطائش معك، والذي ينم عن شخصية يصعب التعامل معها...»

-«كان سوء فهم وانتهى منذ زمن، أخبرتك أنها اعتذرت».

-«قد تكون فعلت، لكن الفتاة طموحها لا حدود له، فرغم أنها التحقت بالعمل حديثًا، إلا أنها تتجاوزنا الواحد تلو الآخر»

-«وماذا في ذلك؟»

-«تعلم جيدًا أن الرجل يحب في زوجته كل شيئ إلا أن تسبقه بخطوات قليلة، فما بالك عندما تكون الخطوات واسعة جدًا، ومن خلال معرفتي السطحية بندى، فلا أعتقد أن عندها أي استعداد للتراجع إلى الوراء، أو حتى التوقف عند نقطة معينة لأجل أحد».

-«هل تقصد أنها أفضل مني؟»

- «ضع حساسيتك الآن جانبًا، لا أفاضل بينكما، ولا مجال لذلك

فكلاكما يبرع في مجال معين، لكنك إنسان حساس، وعاطفي وهي مندفعة جدًا، ولا تتحدث إلا بلغة العقل والمنطق، تتصرف وفق ما يمليه عليها عقلها دون اعتبار لردة فعل الطرف الأخر»

-«ربما تكون على حق، لكن لا تنس أن الحب يصنع المعجزات، وأنا أحبها، وأحترم كفاحها كثيرًا. لذلك سنكون بخير لا تقلق يا صديقي»

-«أتمنى ذلك، فهذا زواج، وليست نزهة لأيام أو شهور ثم يذهب كل واحد لحال سبيله، وفي كل الأحوال أتمنى لكما السعادة، فكلاكما يستحق كل خير»

طمأن صديقه بابتسامة، وأكمل عقله رحله الشرود التائه...

فأحمد على حق، لم يكن حتى يطيق سماع اسمها بعد أن وضعته في موقف سخيف بسبب تهورها ورغبتها القوية؛ لإثبات نفسها وإظهار قدراتها ولو على حساب الآخرين رغم أنه لم يمض على وجودها في المكتب أكثر من ثلاثة أشهر كمتدربة...

12

-«من أعد هذه المذكرة؟!»

اندفعت إلى المكتب، وهي تتحدث بصوت عالٍ:

-«أنا كتبتها؟ ما المشكلة؟»

أجابها ببرود...

وضعت الأوراق على مكتبه، وراحت تتحدث بعصبية:

-«سيدي هذه المذكرة تصلح للإلقاء في مسرح للخطابة والشعر أكثر منها لمخاطبة قاضٍ في محكمة، لم أصدق أنك أنت من كتبها ظننتها لمتدرب فاشل...»

-«أستاذة... ما اسمك آها ندى، أتمنى أن تحاسبي على كلامك أكثر».

-«بل أنا من يتمنى أن تتقن عملك أفضل، وحاول اختيار كلمات أكثر قوة فأنت في محكمة، ولست في مسرح»

-«حسنًا.. ما أن تنهي فترة التدريب، ويتم تعيينيك مديرًا مباشرًا علي، سأطبق كلامك بحذافيره...»

رمقته بنظرة غاضبة وهي تقول:

-«معك حق.. لكني في كل الأحوال سأعيد صياغة مذكرتك بأسلوبي الخاص، فمن المستحيل أن أضع نفسي في موقف محرج أمام هيئة القضاة بمثل هذه المرافعة»

-«اعملي ما يحلو لك...»

قالها ببرود مصطنع، وعاد لإكمال عمله مدعيًا تجاهل وقوفها بين يديه.

لم تكن تتصرف بتلك الطريقة معه فقط، بل مع الجميع دون استثناء، ولم يشفع لها عند مديرها سوى ذكائها وقدرتها الكبيرة على تجاوز البقية بسهولة، فلم يكن أمامهم إلا تعويد أنفسهم على أسلوبها ومحاولة التغاضي عنه.

وبغض النظر عن اندفاعها الذي لا مسوغ له، أثارت إعجاب الجميع بقدرتها على إثبات نفسها، وتقدمها الملحوظ في العمل، وشجاعتها الفريدة التي تخفيها ملامحها الأنثوية...

13

-«أستاذ سمير!»

همَّ بمغادرة قاعة المحكمة قبل أن يوقفه صوت أنثوي ليس بالغريب، وإن كانت الغرابة في النبرة الهادئة التي طرأت عليه، التفت نحوها محاولا تصنع البرود:

-«خير إن شاء الله... هل لديك أي ملاحظات أو تعليقات على مرافعتي التي أنهيتها للتو، أم تودين أن أترك البالطو وأتوجه نحو أقرب مسرح!»

-«آه».. ارتبكت للحظة قبل أن تكمل:

- «إذاً! مازلت تذكر؟»

-«خير ما الأمر!»

-«لا شيء فقط أردت أن أسجل إعجابي بمرافعتك، وأجدد اعتذاري عما بدر مني يومها، ليس لك فقط بل لجميع الزملاء، تحمست حينها للعمل ولأوقات كثيرة كنت أنسى نفسي...»

-«هكذا إذا!»

كان اندهاشه حقيقًا هذه المرة.

-«بصراحة أسلوبك يختلف تمامًا عن أسلوبي أو أسلوب

أغلبنا، بل يكاد يكون مميزًا، أدركت خلال الدقائق الماضية أن ليس بالضرورة أن تكون كلماتي قوية بقدر ما يهم أن تحدث تأثيرًا قويًا على الآخرين رغم بساطتها، وهذا ما تجيده أنت، بكل هدوء وانسيابية تتسلل إلى العقول وتغير الاتجاه الذي كانت تسير نحوه»

-«هل أعتبرها مجاملة أم عربون صلح!»

-«لا هذا ولا ذاك، فقط أرادت قول حقيقة أدركتها للتو، وأدركت كم كنت مخطئة بالحكم عليك، كما أني لست ممن يجيدون المجاملات، أتمنى لك التوفيق».

وبابتسامة رقيقة ودعته وانصرفت:

-«شجاعة حقا!»

تمتم بها وهو عاجز عن إخفاء إعجابه بشجاعتها في التعبير عن رأيها بصراحة سواء كان انتقاداً أو إعجابا...

14

لا يعرف حقيقة كيف فكر بذلك ولماذا ومتى قرر؟ لكنه لم يدر بنفسه إلا وهو يعرض عليها رغبته في الزواج، هكذا دون مقدمات، لتفاجئه هي بالموافقة دون تردد.

وكأنها هي أيضًا كانت تفكر فيه بطريقة أو بأخرى، كانت موافقتها على مشاركته حياته أو ما تبقى منها من أجمل ما حدث له حينها، وكأنه قد وجد سعادته التي ينشدها أخيرًا.

-«هل تأتي إلى هنا باستمرار؟»

قالتها وهي تتجول ببصرها في ملاذه الخاص حيث يحلو له أن يقضي معظم أوقاته.

-«بيتنا ليس بعيدًا من هنا كما ترين، لذا احتضنني هذا المكان منذ صغري»

-«ألهذا تقضي معظم الوقت وحيدًا؟!»

-«ماذا تعنين؟»

-«لست اجتماعيًا كالبقية، فقلما تتحدث مع الزملاء، أو حتى تشاركهم مناسباتهم الخاصة أو الاجتماعية، فما أن تنهي عملك حتى تنسل خارجًا دون حتى أن تلقي تحية الوداع، أو تبادل الآخرين

الأحاديث الجانبية، ربما؛ لأنك تعودت قضاء معظم وقتك وحيدًا»

-«ربما.. »

قالها وعاد إلى مراقبة البحر لتجد نفسها تنظر إلى حيث سرح ببصره.

-«جميل هو البحر...»

قالتها وهي تحدق في الامتداد الشاسع أمامها بإعجاب

-«كأنك لم تزوريه من قبل؟!»

-«بلى، زرته لكن ليس كثيرًا فلست مغرمةً به، كما أن عمقه يخيفني..»

-«حقا! أنا يغريني بهدوئه وصخبه بعمقه وشفافيته، وحتى الموسيقى الجميلة التي يعزفها...»

-«موسيقى؟! أنت تمزح!»

قالتها محاولة إخفاء نبرة السخرية التي امتزجت بحروفها.

أثار ردها ضحكه، فراح يحكي لها عن علاقته بالبحر، وقدرته على فك رموز اللغة التي يتحدث بها هو وكل ما حوله، كانت تستمع له باندهاش، ومن حين لآخر تحاول الإصغاء لالتقاط الأصوات التي يتحدث عنها لكن دون جدوى، وفي الأخير قالت وهي تهز كتفيها:

-«لا أدري كيف تقوم بكل ذلك؟»

-«ربما.. لأني أقضي وقتا أطول هنا».

-«قد تكون على حق»..

صمتت لبرهة قبل أن تكمل:

-«بالكاد كنت أحظى بوقت فراغ، فوقتي موزع بين الدراسة والعمل إلى جانب الاعتناء بوالدتي وإخوتي، التأمل في قاموسي يعتبر من المحرمات».

لم يدر بما يجيبها، فحتى وقت قريب كان يأخذ مصروف جيب من والده، ولا يعرف كيف يكون اليوم مزحومًا بالعمل والدراسة معًا، لكن بدا له الأمر شائقًا وممتعًا أكثر من الجلوس لساعات طويلة دون القيام بشيء سوى التأمل أو القراءة..

-«سمير!»

خاطبته بعد أن تعبا من المشي:

«ألن يضايقك أن أستمر في العمل بعد الزواج؟!»

-«لا أعتقد أن ذلك سيشكل فارقًا طالما أن مملكتنا الصغيرة لن تتأثر، لكن لماذا تصرين على إثارة موضوع العمل، فمنذ عقد القران وأنت تتطرقين لهذا الموضوع بشكل شبه يومي، هل تعتقدين أني لن أكون قادرًا على تحمل مسؤوليتي نحوك؟!»

-«لا... لم يتبادر هذا الأمر لذهني مطلقًا، لكن حقيقة لا أتصور

نفسي حبيسة البيت طوال اليوم، عقلي تعود على العمل المتواصل، ولا أعتقد أنه سيكون قادرًا على قضاء الكثير من الوقت بهدوء تام، فضجيج العمل يغريه كثيرًا.

صحيح أني كنت أعمل لأُعيل إخوتي وأمي لسنوات ليست بالقليلة، لكني لم أفكر بالعمل على أنه المنفذ لكسب المال فقط وبمجرد حصولي على مصدر آخر للمال أتخلى عنه.

فعندما تُوفي والدي وراح أهله كل يرمينا إلى الآخر ليخلص نفسه من عبء المسئولية، وجدنا أنفسنا أخيرًا في الشارع بلا مأوى، شعرت بالمهانة وقتها، وأخذت على نفسي عهدًا ألا أحتاج إلى أحد أبدًا.

كان عليَّ أن أُسكِتَ بكاء الفتاة الصغيرة التي تنوح في داخلي وأعلمها أن البكاء ليس إلا للضعفاء - وأنا لست ضعيفة - ووجدت نفسي أحمل على عاتقي المسئولية كاملة، كبرت في يوم وليلة وراح عودي يشتد وآفاق طموحي تتوسع حتى ظننت ألا نهاية لها، فلا تعتقد أنه من السهل علي نسيان سنوات طويلة من عمري في لحظة، تحملت خلالها ما يعجز بعض الرجال عن تحمله.

نعم أشعر أحيانًا كثيرة برغبة لوضع رأسي على المخدة وأنام دون أن أفكر في الغد، أتمنى أن أكون زوجة يعتني بي أحدهم، كما أعتني بي والدي يومًا ما، أفرغ رأسي من كل الهموم وأتفرغ للاعتناء ببيتي وزوجي وأطفالي، لكن بنفس الوقت ليس عندي أدنى استعداد

للتخلي عن ذات أفنيت أجمل سنوات عمري وأنا أربيها وأعدها أيًّا كانت الأسباب»

-«كل يوم تجبريني على احترامك أكثر..»

قالها وهو يحدق في عينيها الواسعتين، فقد اختلجت المشاعر في أعماقه حينها ولم يدر هل هو يغبطها، أم يحسدها على روعة الروح التي تستوطن جسدها الصغير... لم يتحمل يومًا حتى مسؤولية نفسه فكيف بالآخرين...

-«سنكون بخير طالما قلوبنا عامرة بحبنا لبعضنا..»

حاول طمأنتها متمنيًا أن يكونا كذلك بالفعل، وأن يعوضها عن كل التعب الذي نالها دون ذنب منها سوى أنها قوية ومتماسكة. سيطرت عليه رغبة جامحة؛ ليثبت لها أنه هو أيضًا قادرٌ على تحمل المسؤولية كما فعلت هي وأكثر، وأنه ليس أقل منها صلابةً حين يتطلب الأمر ذلك.

15

سنوات قليلة جمعتهما في عش الزوجية كانت كفيلة بمحو ذلك الانبهار، وسريعًا جدًا شعر أن خطرًا يهدد استقرارهما...

وإن لم تتعمد ذلك لكنها كانت بارعة جدًا في توسيع الفجوة بينها وبينه حتى بات مديره في العمل يعيره بها، لماذا لا يكون مثلها... لماذا لا يحاول اللحاق بها وإثبات قدراته كما تفعل هي؟؟

حاول تجاهل الأمر في البداية، لكنه عجز، حتى شك أنها تتعمد اغتنام الفرص لإثبات تفوقها عليه أمام الجميع، وخاصة كلما أثير بين يديها موضوع ترك العمل والتفرغ لأعمال البيت وتربية ابنتها الصغيرة، ويتحمل هو كافة الأعباء المادية وإن اضطره الأمر للعمل ساعات إضافية، لكنها كانت ترفض بإصرار مترجمة رفضها بالاجتهاد أكثر في العمل، وكأنها تحاول أن تثبت له بشكل عملي أنها أجدر منه على العمل خارج البيت

ربما لأنها لم تجد في زوجها الحنون ما يغنيها عن طموحها ورغبتها بالانتقام من كل من تخلى عنها في صغرها بإثبات نفسها، والاستمرار في اعتلاء سلم الطموح الذي لا ينتهي رغم أن أيًا منهم غير موجود، أو لا يشعر حتى بوجودها وبانجازاتها، لكنها واصلت انتقامها من صورهم التي علقت في ذاكرتها، وعجز الزمن عن محوها، وكلما حققت انتصار فتح شهيتها لانتصار آخر وأكبر ومع

مرور الوقت أخذ سقف طموحها يرتفع حتى تلاشى السقف وبات بلا نهاية.

حتى ابنتها الصغيرة التي ملأت عليها حياتها ببكائها وضحكاتها، بقدر حبها لها وتعلقها بها... لم تجد فيها أي عزاء.

فلم تكد المسكينة تطفئ شمعتها التاسعة حتى ذابت شمعة حب والديها الجميلة، وانطفأت تمامًا، فتتحمل هي دون ذنب عواقب قرارهما.

16

-«عليك أن تقدمي استقالتك من العمل؟!»

قالها وهو يستعد لترك طاولة الطعام.

-«ألا تمل من تكرار هذا الطلب؟»

-«لديك ابنة بحاجة إلى اهتمامك، وعلى ما أعتقد مازال هناك زوج بالكاد تشعرين بوجوده».

-«لم أقصر لا بحقك ولا بحقها... تزوجتني وأنت تعرف أني أعمل وحبي لعملي لا حدود له، وعلى ما أذكر كان بيننا اتفاق منذ البداية، أن ترك العمل مشروط فقط بتقصيري في واجباتي، وحتى الآن أقوم بواجباتي كما ينبغي، وأنا الوحيدة التي تتحمل تبعات العمل في البيت وخارجه، ولم أشتك بعد»

-«أنا الرجل هنا ومن واجبي أنا الاهتمام بالعمل خارج البيت بينما أنت عليك تغطية الجانب الآخر...»

-«والجانب الآخر لم أقصر فيه، ثم إن عملي ليس لأجل العائد المادي، وأنت تعرف هذا جيدًا، وكنت من أكثر المشجعين والداعمين لي في بداية مشواري، وعدتني يومًا أن زواجنا لن يقف حاجزًا بيني وبين عملي وطموحي، فأتمنى أن تفي بوعدك فوعد الحُرِّ دَيْنٌ عليه»

وكعادته عندما تغلبه حجتها يترك البيت، وينسحب تاركًا باب النقاش أو الشجار مفتوحًا إلى أجل غير مسمى.

أكثر ما كان يؤلمها إصرارهما على تجاهلها كلما خاضا مثل هذه المهاترات العقيمة وما أكثرها، بل لا تكاد تمضي ليلة دون أن تعلو أصواتهما التي تنتهي بتهديده المستمر بترك البيت، والذي يترجمه فورًا بصوت الباب يغلق خلفه بقوة ليعود بعد ساعات وقد هدأ غضبه...

17

لم يكن كعادته ذلك الصباح، تركها تلعب وانـزوى بعيدًا يقرأ في كتابه بهدوء، رغم استيعابها للأمر جيدًا، لكنها تعودت تصنع عدم المعرفة بين يديه، اقتربت منه، لكن لم تتصنع الغباء هذه المرة، فقد كان الأمر جديًا، ولعل الجيران أيضًا سمعوا شجارهما الأخير.

-«هل ستنفصلان قريبًا؟!»

سألته دون مقدمات.

اعتدل في جلسته ووضع الكتاب جانبًا:

«من أخبرك؟ أمك!»

أومأت برأسها نفيًا، دون أن ترفع بصرها.

-«إذا؟!»

«....»

-«التفتي إليّ وصارحيني من أوحى لك بهذه الفكرة السخيفة»

-«ليست سخيفة فأنتما في شجار مستمر، وبالكاد تتحدثان إلى بعضكما، وإن حدث ذلك فمعناه أن يبدأ نقاش ينتهي بخروجك من البيت غاضبًا».

صمتت لبرهة، ثم أكملت بتوتر أكثر:

-«سمعتك البارحة وأنت تصرخ فيها أنك سئمت هذا الوضع، وستغادر حياتها إلى الأبد إن لم تعدل عن قرارها، ولا أظن أن عندها استعدادا للرضوخ..»

-«هكذا إذًا!»

فتح ذراعيه لتقترب منه أكثر، اقتربت فضمها إليه، أطال النظر في عينيها الواسعتين.

-«أتعلمين لو أن همومي تعادل هذا البحر اتساعًا وعمقًا، بمجرد أن أضمك إلى صدري، وأطيل الإبحار في عينيك الجميلتين أنسى كل شيء، وأشعر أني إحدى تلك الطيور المحلقة لا يقيدها هم أو حزن»

-«إذًا، لست جادًا في تهديدك بالرحيل؟»

-«لا... هي مجرد كلمة أقولها في لحظة غضب، لكن بمجرد أن أغادر البيت حتى يشدني حبي لابنتي الصغيرة، فأجد نفسي مجبرًا على العودة...»

تلفت حوله وأكمل:

-«بصراحة سئمت من الجلوس هنا والقراءة في هذا الكتاب الممل، انظري إلى تلك الصخرة هناك، إن سبقتني سأحملك على

كتفيّ إلى البيت، وإن سبقتك أنا ستحملينني أنتِ»

«حسنًا!»

قالتها وهي تخلص نفسها منه، وتجري بكل ما أوتيت من قوة وهي تضحك.

18

-«ألا تلاحظ أنك بالكاد تتحدث معي!»

وضع كتابه جانبًا والتفت نحوها ببرود:

-«ماذا تريدينني أن أقول؟»

-«سمير أرجوك لماذا تصعب الأمر على كلينا، كفاك عنادٌ، فالأمر أبسط مما تتصور، في المكتب نحن زملاء لكن في البيت الأمر مختلفٌ تمامًا».

-«تقصدين رئيس ومرؤوس... للتصحيح فقط»

قالها وهو يحاول إخفاء نظرة غضب جالت في عينيه.

أخذت نفسًا، واقتربت منه:

-«إذًا لم تتجاوز الأمر بعد، فمنذ ترقيتي لرئيس قسم، وأنت لا تطيق الحديث معي..»

-«لو كنت تنتبهين لنفسك وأنت تتعمدين انتقادي وإحراجي أمام زملائي لما وصلنا إلى هذا الحد..»

-«أنت من يحاول أن يصور الأمر في قالب شخصي، العمل عمل ولا دخل له بالعلاقات الشخصية، وكما قلت لك سابقًا، أسلوبك مميز لكن في بعض الأوقات لا يكون في محله هذا كل ما في الأمر،

لذا علي أن أقومك بصفتي رئيسك بالعمل»

-«شكرًا على النصيحة... والانتقاد طبعًا»

-«أرجوك...»

-«أنا من يرجوك»..

صمت لبرهة قبل أن يكمل بغيظ:

-«ضقت ذرعًا من عنادك وتصرفاتك ورغبتك في فرض سيطرتك علي وعلى أسلوب عملي لدرجة تشعرني بالاختناق.

اسمعيني يا ندى! لتستمر حياتنا كزوجين ليس أمامنا إلا حل من اثنين، إما أن تتركي العمل، أو أترك أنا حياتك نهائيًا فتديرينها بالطريقة التي تحلو لك»

-«لا أستطيع أن أترك عملي، بعد المشوار الذي حققته وينتظرني»

-«آه كدت أن أنسى، فأنت مرشحة لمنصب نائب المدير العام، ويستحيل أن تتخلي عن هذا الإغراء لأجلي، حسنًا، كما تريدين.. إذًا ليس أمامي إلا أن أنسحب بهدوء...»

-«ماذا تعني؟»

-«سأقبل بالعرض الذي عرضه علي أحد الزملاء»

-«تقصد السفر؟!»

-«دون رجعة»

-«لنناقش هذا الأمر لاحقًا، لا بد أن يكون هناك حل آخر».

-«لا أظن ذلك، بصراحة سئمت من هذه المهاترات، لأكثر من ثماني سنوات، ونحن على هذا الحال، ولا يزداد الوضع إلا سوء» أكمل وهو ينظر في عينيها مباشرة

-«للمرة الأخيرة أبسط بين يديك هذا الطلب: هل عندك استعداد لترك العمل لأجلي ولأجل ابنتنا أم لا؟»

-«ما تطلبه مستحيل»

«أريد إجابة صريحة وفورًا...»

«سمير!»

«قلت أريد إجابة واضحة..»

«لا»..

قالتها بحدة واضحة، وكأنها تغلق أي أمل له بالتراجع عن قراراها، ساد الصمت لبرهة شعرت خلالها أنه سيحطم كل قطعة من أثاث الصالة، إلا أنه أجاب بهدوء غريب لم تعهده عليه..

-«هنيئًا لك الحرية المطلقة...»

كانت تسمعهما، وهي تحشر نفسها في إحدى زوايا غرفتها، وتسد أذنيها بيديها كي لا تسمع المزيد دون فائدة.

صمتا تمامًا بعد جملته الأخيرة، وبعد دقائق قليلة سمعت باب البيت يغلق بقوة، فها هو قد ذهب ليفرغ حنقه بالمشي على شاطئ البحر، ويعود في وقت متأخر من الليل، وأحيانًا مع بزوغ الفجر، لكن ولسبب تجهله، أو لا تريد أن تفهمه لم يعد تلك الليلة، لم يدخل عليها في غرفتها، بعد عودته من جولته الشاطئية الليلة- كما يفعل دائمًا- يقبل جبينها، يأخذها بحضنه وينام جانبها حتى الصباح.

وكم كانت صدمتها عندما أدركت متأخرة جدًا أن ما حدث ذلك المساء إنما كان العاصفة الأخيرة التي أعقبها هدوء تام وفراغ لا يمكن لأحد أن يملأه.

19

-«متى سيعود أبي؟!»

-«والدك رحل، ولن يعود مجددًا»

صمتت قبل أن تكمل ببرود:

-«لقد انفصلنا..»

قلما تكلف نفسها حتى أن ترفع رأسها من كومة الأوراق التي تبعثرت على مكتبها، كانت تجيد شغل نفسها عن التفكير فيه، أو لعل غيابه لم يؤثر فيها فعلا كما لم يؤثر وجوده في حياتها ...

-«وأنا؟!»

-«ماذا بك؟»

-«أريد أبي!»

-«سلمى حبيبتي... لم تعودي طفلة صغيرة، وعليك أن تستوعبي هذا الأمر جيدًا، والدك أراد أن يرحل فرحل»

-«أنت المخطئة وليس هو، فأنت من تركته يرحل بعيدًا»..

قالتها، وتوجهت إلى غرفتها، ومن حينها وهي لا تطيق التعامل مع والدتها، فالأمر كله كان بيدها وبكلمة منها كان سيبقى، لكن بدا

واضحًا أن وجوده أو رحيله لا يشكل فارقًا معها...

ثم لماذا يتصرفان معها بهذه الطريقة، وهل حقًا لا وجود لها في هذه الأسرة ككيان يهتم لأمره أحد، مهما كان صغيرًا، فالأول يرحل دون أن يفكر فيها وإلى ما سيؤول إليه أمرها، والثاني يبخل عليها حتى ببعض الوقت لشرح الأمر، إن كانوا يتزوجون؛ لينجبوا الأطفال، فلماذا عندما ينفصلون لا يفكرون فيهم، وكأن ضعف هؤلاء الصغار وقلة حيلتهم تجعلهم مجبرين على تقبل الأمور أيًّا كانت؟.

قد تكون صغيرة نعم، لكن هي أيضًا لها قلب ينبض بين ضلوعها، تشعر بالفقدان والإهانة لتصرفهما بأنانية مطلقة حيالها، كلًا فكر في نفسه ومستقبله ولم يعنهما أمرها في شيء.

ألا يكفي جولات شجارهما الدائم التي كانت مجبرة على سماع كل كلمة منها، دون أن ينتبه أحدهما إلى أن كل كلمة يقولانها ترسخ في ذهنها، وتؤثر حتى على تصرفاتها أو رؤيتها للمستقبل.

للأسف كل يود أن يطبق قانونه الخاص، ويفرض قراره من منطلق أنه الأقوى دون مراعاة لأمرها أو لأمر القيم التي تعاهدا على رعايتها، أو إلى أي مدى قد تتأذى من تلك القرارات، لكن وأمام الأمر الواقع كان عليها تجاوز الأمر مهما كان قاسيًا ومؤلمًا، خاصة أنها تعيش مع أم تلقي لها بفتات ما يتبقى لها من وقت..

كي تجبر نفسها على نسيان ما قام به زوجها صهرت نفسها

بالعمل أكثر حتى كاد يلتهم كل وقتها، لعلها أرادت أن تثبت لنفسها وله أنها لا تحتاج إليه، وأن غيابه لن يؤثر عليها، رغم أن ذلك لم يكن صحيحًا، فقد كانت تفتقده كثيرًا، ولأكثر من مرة ضبطتها وهي تقلب في ألبومات صورهما بشرود واضح.

كم هو الكبرياء مؤلمٌ عندما يمنع القلب من التنفس والتعبير عن نفسه بحرية، وكم هو العقل قاسٍ عندما يفرض سيادته المطلقة دون أن يترك مجالًا للروح أن تقول كلمتها...

20

-«حضِّري نفسك سنذهب غدًا لزيارة خالك»

-«سيأتي جدي لاصطحابي بعد المدرسة، وسأعود بعد إجازة نهاية الأسبوع»

-«وزيارة خالك؟!»

-«اذهبي أنت.. فلا رغبة لدي في زيارة أحد»

- «وجدك ليس أحدًا!»

«منعتني من الذهاب للعيش عنده، لكن لا تملكين الحق في حرماني من قضاء إجازاتي معه..»

-«متى تتوقفين عن التحدث معي بهذه الطريقة؟»

رمقتها بنظرة غاضبة دون أن تجيبها بكلمة واحدة قبل أن تعود إلى غرفتها، تدرك جيدًا أنها تتعامل مع والدتها بطريقة غير لائقة، لكنها لا تستطيع أن تسامحها، وليس هذا الأمر بيدها فوالدتها تعجز عن سد الفراغ الذي خلفه رحيل والدها عنها، ولا تجد الآن سوى حضن جدها تهرب إليه من بيت لا يتحدث فيه إلا الصمت الصارخ والنظرات الغاضبة المبطنة بالعتاب.

21

-«هل يتحدث معك أبي؟»

-«ليس كثيرًا يا بنيتي، فعلى ما يبدو صب والدك جامّ غضبه علينا جميعا، أو أن عمله يأخذ كل وقته هناك»

-«وهل تشتاق له كما أشتاق له أنا؟»

-«جدا... فأنت لا تدركين ماذا كان يعني لي والدك، ولا يزال، لكن لا نملك سوى الانتظار، فلعله يسامحنا على ذنب لم نقترفه نحن، ويفكر بالعودة يومًا أو حتى فتح باب التواصل المستمر..»

-«ألست غاضبًا منه لرحيله بتلك الطريقة؟!»

«وأنت... هل غضبت منه؟!»

هزت كتفيها وهي تجبر نفسها على الابتسام، لكن لم تقل شيء.

-«وكيف هي والدتك؟» سألها محاولًا تغيير مجرى الحديث

-«لا أدري..»

-«كيف لا تدرين؟ ألا تعيشين معها بنفس البيت؟».

-«هي دائمًا مشغولة بعملها، وأنا مشغولة بدراستي...»

-«لا تكوني قاسية على أمك يا سلمى، فالخطأ ليس خطؤها وحدها...»

-«جـدي! عندما يعـود أبـي سأطلب منه أن يـأخـذني للعيش معكما...»

-«حقا!»

هزت رأسها إيجابًا:

-« سأعد لي كوبًا من الشاي؟ هل تريد واحدًا»

- «بكل تأكيد».



22

-«ألو!»

ردت على الهاتف بصوت ناعس ليأتيها صوت زوجة خالها المتوتر:

-«سلمى جدتك مريضة جدًا وعليك القدوم فورًا»

- «في البيت؟!».

- «لا في المستشفى».

-«جدي ليس هنا سأنتظره حتى يعود ونأتي سويًا».

-«لا تتأخري».

-«حسنًا».

لم تطق انتظار جدها فتوجهت من فورها إلى المستشفى، فليس من عادتهم أن يطلبوا منها الحضور بهذه الطريقة.. ليست المرة الأولى التي تمرض فيها جدتها أو يتم نقلها إلى المستشفى فهي مريضة منذ عرفت نفسها، فما الجديد!

-«ستكون بخير»

حاولت بث الطمأنينة في نفسها وهي تغادر التاكسي.

كانت تنام على أحد الأسرة البيضاء ومن حولها أبناؤها ووالدتها تجلس إلى جانبها تسند رأسها بذراعها، وتبل شفتيها بقطرات الماء بين الفينة والأخرى، تغفو العجوز للحظات، ثم تفتح عينيها بتثاقل، وتهذي بكلمات غير مفهومة، لتغيب عن الوعي مجددًا، وكلما غفت تسمرت العيون عليها، بينما تهزها ابنتها برفق وهي تنادي عليها بصوت مخنوق.

لأول مرة تتجلى نظرة الخوف في عيني والدتها، ولأول مرة تهمس لأحدهم بتلك الرقة، وجدت نفسها تقف أمام أنثى تحمل في صدرها قلب سيدة حنون، وأخيرًا ذاب الجدار الثلجي الذي تخفي نفسها خلفه لتظهر قلب الأم والابنة بنفس الوقت.

أما هي فقد انزوت في ركن الغرفة، تسري القشعريرة في جسدها من وقت إلى آخر ونوبات الخوف تهزها من الداخل، فشبح الموت يحوم في أرجاء الغرفة، وعلى ما يبدو يرفض المغادرة دون رفقة.

تمنت أن تنسحب بعيدًا، لكنها عجزت عن تحريك قدميها - المسكينة يبدو أنها تتألم كثيرًا - لوقت طويل وهي تصارع المرض حتى باتت عظاما يغطيها جلد أكل منه الزمن وشرب، ما أطول الليالي التي أمضتها وهي تتألم بصمت بالكاد يسمع الجالس بجانبها أنينها الخافت!، لم تكن من النوع الذي يشتكي أو يتذمر.

أحيانًا كلما رأت حالتها في تدهور مستمر يدور في خاطرها هاجس أن الموت صار أرحم لها من كل هذا العذاب المتواصل الذي تتزايد

حدته من وقت إلى آخر، لكن في هذه اللحظة بالذات رفضت مجرد التفكير في ذلك، وتمنت لو تعيش معهم لوقت أطول، لا يهم كيف.. المهم ألا تغادرهم دون رجعة...

23

«سلمى! أنت لا تأكلين جيدًا... انظري إلى يديك كيف أصبحت ناحلة...»

راحت العجوز تتفحص جسدها ووجهها بيديها، وسيلتها الوحيدة للتعرف على أحفادها بعد أن فقدت بصرها.

-«جدتي....»

أمسكت بكلتا يديها، وراحت تقبلهما، وأكملت ضاحكة:

-«يعني أنت التي تأكلين جيدًا؟!»

-«آه يا بنتي!... أنا زماني قد انتهى، أما أنت في ريعان شبابك فلا تقارني نفسك بي، واعتني بنفسك جيدًا...»

-«حسنًا... فطلباتك أوامر»

-«وأين والدتك لماذا لم تأت معك؟»

-«مشغولة جدًا... لكنها ستأتي في الغد إن شاء اللّه»

-«هي مشغولة دائمًا، كم أشعر بالذنب حيالها، كان اللّه في عونها».

توقفت عن الحديث، وعادت لتمسك بيدها تؤنبها على إهمالها لصحتها.

24

-«أمـ....ي!»

أعادها صوت والدتها المخنوق، اختلط صوتها المنكسر بصوت تكسر الكأس الذي رمته على الأرض، كانت تضمها إلى صدرها وهي تبكي بحرقة، بينما التف الآخرون حولها، لا يدرون هل يبكون فراق والدتهم أم يخففون عن أختهم المكلومة...

عجزت قدماها عن حملها، وهي تشاهد انهيار أمها بين يديها بهذا الشكل، ولأول مرة تتعاطف معها، وترثى لحالها، فكم صعب هو فراق الأحبة، ولا يكاد يطيقه القلب؛ ولأن الجميع كان منشغلا بين جسد فارق الحياة وجسد يكاد ينهار من شدة الحزن... لم يشعر بها أحد، حشرت جسدها في زاوية الغرفة، وراحت هي الأخرى تبكي بتشنج، لا تدري وقتها هل كانت تبكي رحيل جدتها أم حزنًا على والدتها، أم أنها تبكي خوفًا من الموت الذي راح يحلق في المكان بحضوره المهيب والمخيف.

25

انهارت والدتها فجأةً بمجرد أن فارقت الروح بقايا جسد هدته السنون الطويلة والمرض، رغم أن والدتها كانت عبئًا عليها أكثر منها عون لكنها لم تشعر يومًا بثقله، أو تفكر بالتخلي عنه.

رغم ضعفها وقلة حيلتها لكنها كانت بمثابة الروح التي تمدها بالطاقة التي تحتاج، لا يهم كيف هو وجودها في حياتها، ولا ما تقدمه، فالمهم أن تكون هناك ترتمي بين أحضانها كلما شعرت بالحنين إلى روح الطفلة التي اضطرتها الظروف للتخلي عنها مبكرًا.

رغم أنها كانت تدرك أن الموت الذي أخذ والدها في شبابه سيأخذ غيره عاجلا أم آجلا، لكن كان يحلو لها أن تستثني والدتها من تلك الحقيقة، وكأنها أقنعت نفسها أن القدر سيتركها لها كنوع من التعويض من الحرمان من حنان الأب باكرًا...

لكنه لم يفعل، فالموت لا يستثني أحدا، وكل نفس ذائقة الموت، بعد محاولات عدة تمكنوا من انتزاع والدتها من حضنها، ومعها انتزعوا قوتها وتماسكها...

26

-«أمي! العشاء جاهز...»

-«لا رغبة لي في الأكل...»

-«أمي أرجوك، أنت تعذبين نفسك بهذه الطريقة...»

نظرت إليها ودموعها تسطر على خديها حزنا دفينا:

-«تعالي يا بنتي...»

فتحت لها ذراعيها، وراحت تضمها إليها وتبكي بحرقة، شعرت بحرارة دموعها تحرق صدرها هي، تمنت أن تخرجها من حالتها تلك لكنها لم تستطع أن تقدم لها سوى البقاء بالقرب منها؛ حتى تتجاوز أزمتها.

يحركها التعاطف والشعور بالشفقة عليها، لكن مع مرور الأيام اختفى من قلبها الشعور بالتعاطف، وأدركت أن خوفها عليها وبكاءها في زاوية غرفة المستشفى ذلك اليوم لم يكن من باب الشفقة، بل أعمق من ذلك بكثير...

أدركت كم تحبها رغم عدم اعترافها بذلك لوقت طويل، وكأن حبها لها كان يتسلل بين شرايينها دون أن تشعر أو حتى تعترف بذلك يومًا...

تخيلت نفسها تحتضن جسد والدتها، وقد سرت فيه برودة الموت والسكون فاقشعر بدنها لمجرد التفكير في ذلك، وتأكدت أنها لن تتحمل فراقها أبدًا، ربما تمنت كثيرًا أن تتركها، وتذهب لتعيش عند جدها، بل ودخلت معها في نقاشات حادة لتسمح لها بذلك، لكن أن تموت، وتتركها نهائيًا فهذا ما لا تطيقه...

27

-«أمي، وردك اتصال من المكتب...»

-«لا أريد أن أتحدث لأحد...»

همت بالخروج قبل أن يوقفها صوتها وكأنها تحدث نفسها:

-«كان سمير على حق»

-«أمي!»

-«كان بجانبي يعتني بي، ويهتم لأمري، ولم أنتبه للفارق الذي أحدثه غيابه إلا عندما احتجته بحق فما أمرّ الوحدة»!

جلست إلى جانبها لكنها لم تجد ما تقوله.

-«كان قلبه كبيرًا وحبه أكبر، لوهلة شعرت أن والدي يعود إلى الحياة، ويحتضنني، يقول لي لا تخافي أنا جانبك؛ فيزداد خوفي وتمسكي بحصانتي، كان حضنه دافئًا لكن القوة التي أستمدها من عملي واعتمادي على نفسي أكثر دفئًا... وها هو قد مضى بعيدًا دون أن يكلف نفسه عناء الالتفات إلى الخلف».

-«أنت من سمح له بالرحيل».

-«ربما... سمحت له بذلك؛ لأنه لم يكف يومًا عن تهديدي، لم يشعرني يومًا بالأمان، ولو كان فعل لتركت كل شي لأجله...»

حاولت أن ترد عليها، لكنها التزمت الصمت، لعل والدتها على حق، فليس من السهل أن يتخلى الإنسان عن سنوات عمر من الكفاح؛ لأجل شخص يعجز عن تقديم أبسط احتياجاتك «الأمان»، كان محبًا وعطوفًا، لكن ما أن يضايقه شيء؛ حتى يبادر بالانسحاب بسرعة دون التفكير بالعواقب، أو حال من سيتركهم بعده كيف سيكون.

ببساطة لم يكن جديرًا بتحمل المسؤولية، وما أن يستشعر ثقلها وعجزه حيالها حتى يبادر بالهروب.

على عكسه تمامًا كانت والدتها، فحتى بعد أن تزوجت لم تنس مسئوليتها تجاه والدتها وإخوتها، ظلت تعتني بهم بقدر ما تستطيع، يحركها الشعور بالمسئولية والحب الذي لا تترجمه الكلمات بقدر ما تترجمه الأفعال، ومهما كانت الضغوط على كاهلها إلا أنها لا تفكر أبدًا في الانسحاب أو البحث عن مهرب مهما كلفها الثمن.

رغم أنها ظلت تحملها وزر ما حدث على مدى سنوات، وتحاول في كل فرصة إشعارها أنها المذنب الوحيد، لكنها لم تفكر يوما بالتخلي عنها، وتتفرغ لشأنها الخاص رغم أن ذلك كان ممكنًا جدًا بوجود جدها الذي حاول جاهدًا الحصول على فرصة رعايتها كتعويض عن رحيل ابنه الوحيد.

28

-«ما الأمر يا عمي؟، أخبرتني سلمى أنك تريد مخاطبتي في أمر مهم؟»

-«سأحضر لك شيء تشربينه»

-«لا داعي لذلك، هل تواجه سلمى مشكلة معينة؟!»

«لا تقلقي سلمى بخير فقط أردت أن أطلب منك طلبا وكلي أمل أنك لن تخيبي ظني هذه المرة أيضا...»

«.......»

-«أريد أن توافقي على انتقال سلمى للعيش معي»

-«لكنها تزورك باستمرار، وهي الآن عندك على ما أظن!»

-«يومًا بالأسبوع ليس كافيًا، فالوحدة تقتلني...»

-«اصدقني القول، هل هذه رغبتك أنت أم رغبتها هي؟»

-«كلانا»

-«بل قل إن سلمى ما عادت تطيق العيش معي، أدرك ذلك جيدًا»

-«ندى.. ليس الأمر كما تعتقدين»

-«بل هو ذاك، اسمعني يا عمي، وأنا متأكدة أنها تسترق السمع لنا الآن لذا لن أكرر ما سأقوله...»

صمتت لبرهة قبل أن تكمل بصوت حازم:

-«إن كان والدها قد رماها، ومضى بعيدًا فلن أفعل مثله، مهما كان رأيها فيَّ، سلمى ابنتي وأنا الآن المسؤول الأول والأخير عنها، وسأفعل كل ما بوسعي تجاهها، وهذا وعد مني بمجرد أن تكون واعية بما فيه الكفاية لتصرفاتها فسأترك لها حرية الاختيار، ولن أقف في وجهها أبدًا وحتى ذلك الحين سأكون شاكرة بعدم فتح هذا الموضوع مجددًا...»

وقبل أن تفتح الباب أكملت:

- «أخبرها أني أنتظرها في السيارة لنعود إلى البيت...»

رغم أنها حاولت أن تبدو هادئة، لكنها لم تكن كذلك فهي تعرفها عندما يتملكها الغضب وساعتها كانت كذلك، كانت كمن تلقى طعنة من الخلف، فرغم كل ما تقدمه لكنها لا تجد منها سوى النكـران...

29

-«سنكون بخير دونه...»

همست بها وهي تمسك بيدي والدتها، وتتوسلها بنظراتها أن تكف عن تعذيب نفسها، فهي تدرك جيدًا كيف يكون الشعور بالوحدة، وتخاف على والدتها...

نظرت إليها محاولة رسم ابتسامة باهتة، لكنها عجزت، احتضنت ابنتها، واكتفت بالتحديق من خلال النافذة المفتوحة بصمت مشحون بالكلمات...

صحيح أن وجود زوجها إلى جانبها ما كان ليغير من القدر شيئًا، ولا كان سيقف في وجه الموت وهو يأخذ والدتها، لكن وجوده كان كفيلا بتخفيف وطأة الألم على قلبها ومحو شعورها بالوحدة...

لكنه العناد والخوف من المجهول الذي لامسوغ له، ومن الغد الذي باعد بينه وبينها، سطوة السلطة التي استحكمت بها في لحظة ما، فأشعرتها أنها قوة لا تقهر وعلى الجميع أن ينصاع لها دون مناقشة.

كان على حق، فكم كان يحلو لها أن تشعره بأنها أفضل منه، أرادت أن تنتزع منه اعترافًا صريحًا بذلك، لكنه لم يفعل، وبدلا من إشباع غرورها آثر الانسحاب بكرامته بعيدًا...

لكن ما فائدة كل هذا النحيب الآن، فهو هناك يدير حياته كيف يشاء، لابد أنه قد وجد شريكة جديدة لحياته، تشعره بقدراته ومهاراته، ولا تحاول اغتنام الفرص لتبدو أكثر جدارةً وتفوقًا منه...

30

أقفلت سماعة الهاتف وتوجهت إلى غرفة والدتها لتخاطبها بصوت بدا عليه التوتر:

-«إن كنت لا تمانعين أود الذهاب لزيارة جدي»

-«أخطب ألمَّ به؟»

-«ليس تحديدًا لكن صوته لم يعجبني، وأنا أحدثه بالهاتف...»

-«ألا يمكن أن ينتظر الأمر حتى الصباح؟»

-«كما تشائين...»

وقبل أن تغلق باب الغرفة خلفها أتاها صوت والدتها:

-«انتظري... جهزي نفسك سأقلك إليه الآن...»

لم تمانع رغم الشحوب الذي بدا على وجه والدتها، بل أسرعت إلى غرفتها؛ لتجهز نفسها، متجاهلة الشعور بالذنب أن تدعي مرض جدها؛ لتجبرها على اصطحابها إليه، لم تفكر أبدًا في لوم نفسها، فبمجرد أن حدثها جدها بالأمر لم يكن بمقدورها الانتظار حتى الصباح...

31

-«وهل والدتك بخير؟»

سألها مستدرجًا .

-«نعم يا جدي... بدأت تتجاوز الأمر ولله الحمد، لم أتصور أن تتأثر إلى هذه الدرجة، لكن هذا ما حدث...»

-«هذه والدتها وطبيعي أن تحزن لفراقها»

-«ليس الأمر مجرد حزن فقد سمعتها البارحة تتحدث إلى أحدهم بالمكتب وتعلمهم أنها في إجازة مفتوحة، وقد تقدم استقالتها في أية لحظة...»

-«حقا!»

-«نعم... أشعر بالأسى حيالها، تعودت أن أراها قويةً، فلا أتحمل انهيارها بهذه الدرجة، وكأنَّ وفاة جدتي قد قلب عليها كل المواجع التي كانت تتشاغل عنها، كم أتمنى أن أساعدها لكن ليس بيدي حيلة...»

-«لا تقلقي... والدتك قوية، وستتجاوز الأمر أسرع مما تتصورين»

-«آمل ذلك.. وهل أنت بخير؟، لم أزرك منذ فترة»

-«طبعًا بخير ولدي مفاجأة لأجلك ستسعدك جدًا»

-«خير!»

-«والدك اتصل بي، وأرسل لي بعض الصور الحديثة له... رائع كما هو.. لم يتغير...»

-«حقًا!»

-«سأحتفظ بالصور لأجلك، لترينها في زيارتك القادمة»

-«هل سأل عني؟»

-«بالطبع.. طمأنته أنك بخير، وأخبرته بما حدث لوالدتك، كان حزينًا لأجلها...»

-«سأطلب من والدتي أن تصطحبني إليك الآن، أريد أن أرى صورته، وستحكي لي بالتفصيل الممل عن محادثتكما...»

-«حسنًا ! سأنتظرك»

32

-«هل أنتِ بخير؟!»

«....»

-«أمي!» نادتها بصوت أعلى عندما لم تجد منها أي إجابة

-«ما الأمر؟»

-«سألتك هل أنت بخير، لكنك لم تجيبي، إن كنت متعبة بإمكاننا تأجيل الأمر للغد...»

-«لا تقلقي أنا بخير، ثم أنا نفسي بحاجة إلى بعض هواء المساء المنعش، لم أغادر البيت منذ أسابيع...»

أجابتها وعادت لتركز في الشارع الظلم الممتد أمامها، في حين بدا واضحًا عليها أن عقلها يسبح في عالم آخر.

-«حسنا!»

قالتها وهي تنظر نحوها بقلقٍ وتأمل أن تكون كذلك بالفعل، ثم انشغلت هي الأخرى بمراقبة اللوحات الإعلانية المعلقة على مقدمات المحلات والمراكز التجارية جانب الطريق

شيئًا فشيئًا بدأت الأضواء حولها تخفت، وتحل محلها صورة

والدها بوجهه الطولي وعينيه الصغيرتين ولحيته الخفيفة التي يعتني بها جيدًا.

-«لابد أن يكون الشيب قد وجد طريقه إلى لحيته وشعره»

ابتسمت وهي تهمس بها في سرها، بكل تأكيد سيزيده ذلك وسامة ووقارًا، وصوته... نعم صوته لابد أنه قد تغير نوعًا ما، لكنه سيظل هادئًا وحنونًا كعهدها به...

لاتطيق صبرًا؛ لتتصفح كل الصور التي أرسلها، ستطلب من جدها أن يتصل به، وهي عنده؛ كي تسمع صوته، فهي تشتاق له كثيرًا، ستعاتبه... نعم لابد أن تعاتبه على تركها طوال تلك السنوات دون أن يرسل إليها، أو يتصل بها، ولابد أن يعتذر لها، وستسامحه فلاتملك إلا ذلك.

ربما سيعود قريبًا ولو في زيارة قصيرة لجدها، وستراه أخيرًا، ستخرج برفقته لجولات كما كانت تفعل قبل سنوات، وقد يكون بمقدورها أن تصلح بينه وبين والدتها، فكلاهما الآن بحاجة إليه، وسيستشعر بضرورة وجوده في حياتهما.

لكن هل ستوافق والدتها.... ربما! وفي كل الأحوال ستطلب من جدها أن يساعدها في ذلك، لابد أن يوافق، فهي لا تستطيع الآن أن تترك والدتها وتذهب للعيش معهما، كما وعدت سابقًا، وبنفس الوقت تتمنى أن يكون والدها قريبًا منها.

تخيلته وهو يقف على عتبة الباب، يرمي حقيبته جانبًا، ويفتح لها ذراعيه؛ لترتمي في حضنه، حينها فقط تناست كل شي إلا دفء أحضانه، تركت لقدميها العنان لتحملها إليه تاركةً خلفها سنوات من الحرمان والدموع.

ابتسم لها فكانت ابتسامته مضيئة مشرقة يكاد نورها يطغى على كل الليالي المظلمة التي عانت فيها الوحدة، كان النور يقترب منها بسرعة، ويكاد يبتلعها، اتسعت حدقتي عينيها وهي تصيح بأمها:

-«أمـ...ـ...»

وقبل أن تتعدى الأحرف حنجرتها المرتعدة قطع صوتها صرير عجلات شاحنة تتجه نحوهما بسرعة جنونية ليبتلعهما ضوء ساطع أعقبه ظلام دامس وهدوء مطلق...

33

في صغرها سمعت الكثير من الحكايات عن المـوت، وأن من يواجهون الموت يشاهدون نورًا ساطعًا قبل أن يغادروا الدنيا، يعقبه ظلام دامس، كانت مجرد حكايات ليس إلا، لكن تلك الليلة شعرت أن هذا ما يحدث فعلا، فقد رأت الموت يقترب منها متوشحًا نورًا يُبهر الأبصار وما إن احتواها بين حناياه حتى دلفت إلى عالم مظلم لا يتحدث فيه إلا الصمت، وكأن الثوب الساطع بُطِّن بالسواد.

لكن الحياة لم تفارق جسدها كما يفترض به أن يكون، فهي لا تزال تشعر بأنفاسها تتسلل بوجل بين حنايا الظلام، لا تزال موجودة، تتنفس، وتشعر، وحتى تفكر، نعم تفكر في اللا شيء.. ولعلها تتحرك لكن في اللاوجود أيضًا.. فهل هكذا يكون الموت؟!

هل ماتت فعلا وأهالوا على جسدها التراب كما فعلوا مع جدتها قبل أسابيع؟!

وما هذه الهمهمات والضجيج الخافت الذي تشعر به من وقت إلى آخر؟! ربما هي للموتى جيرانها - يا إلهي كم ترعبها هذه الفكرة - لكن هل الموتى يخافون، ويرتعبون؟!

لعلهم كذلك - لأنها خائفة الآن - خائفة من الموت رغم أنه كان شديد البياض، خائفة من القبر الموحش رغم أنها لم تفتح عينيها

بعد لتشاهده، خائفة من الأشباح التي تشعر بحركتها حولها، خائفة من الخوف نفسه وخائفة من الظلام !!...

بل لعل الظلام هو أكثر ما يُخيفها، تخاف منه لدرجة أنها تعجز عن فتح عينيها كي لا تراه - لكن هل يمكن رؤية الظلام؟! - ربما!! وإلا لما كانت خائفة من مجرد التفكير في فتح عينيها.

فالموتى يعرفون ما يخيفهم، وما لا يخيفهم، لذا هي خائفة منه الآن، فقد صارت واحدة منهم، وفهمت كيف يديرون حياتهم الخالية من الحياة؟ لكن!!.. كيف يعقل أن تعيش في عالم دون أن تراه، إن كانت قد ماتت، ودفنت في قبرها فلا بد أن تتأقلم مع الواقع الجديد، فهي لن تمضي هنا أيامًا قليلة، ثم ترحل، فقد مضت فترة على وفاة جدتها.. فهل يعقل أنها ظلت طوال تلك الفترة وهي خائفة أن تفتح عينيها!!؟؟.. - آه تذكرت، فجدتها كانت فاقدة للبصر - لكن لا يعقل أن تظل فاقدة للبصر حتى في قبرها لابد أن يكون بصرها قد عاد لها حتى تتمكن من رؤية عالمها الجديد، ثم لعل العالم هناك أيضا جميل - لابد أن يكون كذلك- فلم يسبق لأحد أن مات ودفن في قبره، ثم عاد إلى الحياة ليجزم أن القبر مظلم وموحش كما نتصور.

لابد أن تهزم الخوف الذي يسيطر عليها، وتفتح عينيها، نعم يجب أن تفعل، حتى وإن كان ما حولها مظلما وموحشا، فما عليها إلا أن تقفلهما، ولن تجازف بفتحهما مجددًا.

رغم اقتناعها بضرورة فتح عينيها للتعرّف على عالمها الجديد بعد الموت، إلا أنها احتاجت إلى وقت أطول للتغلب على مخاوفها، وكم كانت دهشتها عندما فتحتهما وحركت رأسها ببطء حولها لتجد أن القبر أوسع مما كانت تظن، بل ودهنت جدرانه كلها باللون الأبيض، كما أنها ليست وحيدة وإن كانت الوحيدة النائمة على ظهرها ويتحرك الآخرون.

كادت أن تبتسم بسخرية رغم الألم الذي يطحن جسدها، فأي هراء هذا الذي تتحدث عنه؟! وأي قبر هذا الذي كانت خائفة من النظر فيه، بل ودهنت جدرانه باللون الأبيض؟!! للتو سمعت إحداهن تنعت أحدهم بـ«الطبيب»...

34

أغمضت عينيها لبعض الوقت وفتحتهما مجددًا، وسريعًا بدأت تستوعب المشهد أكثر، إنها نائمة بالفعل ولا أحد سواها وهاهي تحدق في السقف الأبيض فوقها، شعرت أنها عادت للتو من كابوس مخيف، لكن كيف؟ تعجز عن التفكير أو حتى ترتيب أفكارها، فالأصوات تتداخل في بعضها والأحداث أكثر تشعبًا.

- «آه»

تذكرت الآن ابتسامة والدها، صرير العجلات، الضوء الساطع الذي غاصت في أعماقه ونقلها إلى كل ذلك الجنون الذي عاشته فيه لفترة من الزمن لا تعرف مدتها، كانت مع والدتها في طريقهما لزيارة جدها و... يا إلهي كانت قد نسيت أمرها تمامًا، أين والدتها من كلّ هذا؟! ألم تكن معها قبل رحلتها الطويلة في عالم الإدراك؟!

أنهك التفكير عقلها الذي على ما يبدو لا يزال جزءًا كبيرًا منه عالق بين تفاصيل الضوء، حاولت رفع يدها فخانتها قواها حاولت التحدث لتطلب من أحدهم أن يطمئنها على والدتها لكن صوتها كان أضعف من أن يجد طريق الخروج من بين شفتيها، أغمضت عينيها مجددًا، وركزت فقط على تنفسها الرتيب، ورويدًا رويدًا غابت المشاهد كلها وعادت تسبح في اللاشيء.

35

عندما فتحت عينيها مجددًا كان بمقدورها التركيز على الأصوات حولها بوضوح أكثر..

-«أين أمي؟!»

نطقت بها بصعوبة، وهي تحدق في السقف، وعلى إثر سماع صوتها الخافت هب أحدهم نحوها بسرعة، خالها وجدها، كانا يحدثانها، وهما يشيران بأيديهما، عجزت عن تمييز ما يقولان... بالكاد تركز على شفاههم التي تتحرك

-«أين أمي؟!»

كررت السؤال، اقترب منها جدها أكثر:

-«سلمى هل تسمعينني؟»

هزت رأسها إيجابًا، وعادت تسأل عن أمها مجددًا، اقترب منها الطبيب هذه المرة، همس بشيء للممرضة غرست حقنة في المغذية التي تمتد منها أنابيب إلى يدها، شيئًا فشيئًا بدأت الصورة تهتز أمامها والوجوه تبتعد حتى اختفت تمامًا، أعقبها ظهور بعض المشاهد المتداخلة في بعضها، كانت جزءًا منها وبنفس الوقت شعرت أنها بعيدة عنها تراقبها، وكأنها انسلخت عن ذاتها، وراحت تراقب نفسها ومن حولها.

36

كان والدها يمسك بيدها، وهي لا تتجاوز العشرة أعوام، ويسير معها على شاطئ البحر – كما يفعل دائمًا – تارة يلعب معها وتارة أخرى يغطسها في البحر، دخلت أمها المشهد، ترك الصغيرة تلهو وحدها وذهب لوالدتها؛ ليحدثها فإذا بالحديث يتحول إلى نقاش حاد، وعلت أصواتهما.

أرادت أن تطلب منهما أن يكفا عن هذا الهراء فهو يؤذي الصغيرة التي هربت بعيدًا عنهما بمجرد ما تعالت أصواتهما، لكن أحدا منهما لم يسمعها، وكأنها هي فقط من بمقدورها الاستماع لهما، بينما لا يدركان وجودها أساسًا، تركتهما، وراحت تبحث عن الصغيرة فوجدتها تختبئ خلف إحدى الصخور، وهي تبكي وتسد أذنيها بيديها؛ حتى لا تسمع الشتائم المتبادلة بينهما، حاولت الاقتراب منها، فارتفع الموج نحوها ومنعها من الاقتراب، غطت وجهها بيديها لتلافي رذاذ الماء البارد، وعندما هدأ الموج عادت لتبحث عن الصغيرة، لم تجدها بل كانت هي ذاتها ابنة الخمسة عشر عامًا تجلس فوق صخرة كبيرة، وتبكي بحرقة، اقتربت منها أكثر، وطلبت منها النهوض من مكانها فهزت رأسها نفيًا.

-«لا أستطيع...»

توسلت لها أن تترك مكانها وتتجه نحوهما لتوقف عبثهما الذي

لا ينتهي، لكنها أصرت أنها لا تستطيع الوقوف، أمسكت بيدها وجذبتها نحوها، وعندما أفلتت يدها وقعت مجددًا، وهي تقسم أنها تعجز عن الحركة.

كان غريبًا جدًا أن تكون في مواجهة نفسها، والأغرب إصرارها على العجز، تلفتت حولها بحثًا عن بعض المساعدة، لكن البحر هاج بشكل غير طبيعي وراحت جبال عالية من الأمواج تتجه نحوها.

صاحت متوسلة :

-«أرجوك لا أريد أن أموت... حاولي مجددًا»

-«قلت لك لا أستطيع، أقسم أني عاجزة تمامًا عن تحريك قدماي، اهربي واتركيني أموت هنا»

-«كيف أهرب وأنا أنتِ؟... لا أستطيع ذلك، فحياتي مرتبطة بك بشكل أو بآخر»

صرخت بعلو صوتها طالبة النجدة من والديها... نظرت نحوهما فإذا بموجه أخرى تبتلع أمها... ووالدها هناك يحاول إنقاذها وإعادتها للشاطئ مجددًا، لكنه عجز، وكلما حاول القفز في الماء يقذف به البحر خارجًا.

وفي لحظة كان يقف أمامها لاهثًا ومتعبًا، حاول حملها والابتعاد بها، لكنه عجز.

-«أرجوك أنقذ والدتي، واتركني هنا...»

لم تفكر في نفسها حينها بقدر ما كانت تفكر في والدتها التي اختفت تمامًا في عرض البحر

-«حاولت لكن البحر منعني!»

-«إذًا اتركني هنا لا أريد أن أعيش دونها...»

«كيف أتركك وكيف لي أن أعيش بدونك؟»

-«أرجوك اتركني هنا لا أريد أن أعيش... أريد والدتي.. أنقذ والدتي... أرجوك»

-«بل أنا أرجوكِ...هيا بنا قبل أن نموت معًا»

-«لا أستطيع الوقوف...»

-«بل تقدرين!»

-«لا أستطيع.. لا أستـ...»

بترت عبارتها المياه المالحة التي راحت تتدفق إلى حلقها وتحرقه وتكتم أنفاسها، وأحاط بهما البحر من كل جهة يحاول ابتلاعهما معًا، بحثت عن والدها فلم تجده كان قد اختفى هو الآخر، ليأتي دورها فراحت تقاوم، وتستنجد دون جدوى...

37

-«سلمى... سلمى...»

فتحت عينيها على عيني جدها وهو يحدق بها بقلق، ويهزها محاولا إنقاذها من الغرق أكثر في كوابيسها...

-«هل أنتِ بخير؟!»

هزت رأسها إيجابًا، وهي تبلل شفتيها بلسانها، حتى استعادت قدرتها على التنفس.

-«البحر ابتلع أمي وأبي... وكاد يبتلعني أنا أيضًا»

تمتمت بها ولا تزال عاجزة عن انتشال نفسها من بين فكي ذلك الكابوس المرعب.

-«أنت بخير يا صغيرتي.. لا تقلقي»

-«وأمي!»

نظر إليها، وشعرت باهتزاز شفته السفلى قبل أن يضمها إلى الأخرى بأسى

-«قل إن أمي أيضًا بخير يا جدي... أرجوك...»

قبل جبينها، وراح يمسح عليه بطرف أصابعه، لكنه لم ينطق

بكلمة واحدة، شعرت بتوتره يسري في جسدها هي أيضًا

-«لم تنج والدتك من الحادث... أنا آسف».

همس بهذه الحروف في أذنها، لم تتحدث أو تصرخ، بل أغمضت عينيها بصمت، وهل يصح أن يولول القاتل في جنازة من قتله، فما كان لكل هذا أن يحدث لولا تصرفاتها الغبية، أما كان بمقدورها تأجيل الأمر حتى الصباح.

-«أنا السبب... أنا السبب... أنا قتلت أمي يا جدي... أنا قتلتها..»

فتحت عينيها راحت تبكي وتؤنب نفسها:

- «أنا من تستحق الموت وليست هي...»

كانت تصيح وتنزع الأنابيب الموصولة بجسدها، وكأنها تنوي اللحاق بوالدتها، أو معاقبة نفسها لكن سرعان ما عادت الممرضة لتنقلها إلى عالم اللاوعي مجددًا.

38

-«ستغادرين المستشفى بعد أيام قليلة...»

نظرت إلى جدها دون أن تجيبه بشيء.

-«سلمى حبيبتي!»

-«وأين سأذهب بعد أن أخرج من هنا؟»

-«وهل هذا سؤال؟ طبعا ستأتي للعيش عندي»

وقبل أن تشعل بداخله نيران سؤال آخر، أكمل بنبرة أكثر حنانا:

- «ليس لأن هذا الخيار الوحيد أمامك ... فخالك يتمنى أن تكوني معه... ولكني أريد ذلك بقوة».

-«وهل بمقدورك تحمل عناء الاعتناء بي؟»

-«وهل أبدو لك عجوزًا جدًا، أنت تهينين جدك بهذه الطريقة؟!»

-«لا أقصد... لكن، كما ترى...»

لم تستطع أن تكمل، أشاحت ببصرها بعيدًا، وراحت تبكي بصمت.

-«لا عليك سنجتاز هذه المرحلة سويًا ...متأكد من ذلك.

ضعي ثقتك بخالقك، ثم بقدرتك، ولابد من تجاوز هذه الأزمة بنجاح...»

تنهدت بعمق، وهي تؤمن على كلامه بحركة خفيفة من رأسها، فما أسهل الكلام، وما أسهل إسداء النصائح، كيف لها أن تتجاوز هذه الأزمة وقد فقدت آخر ما لديها، وفقدت حتى القدرة على الاعتناء بنفسها؟!

39

لسنوات وهي تتمنى الانتقال للعيش عند جدها، وحين واتتها الفرصة لذلك، أصبحت عاجزة تمامًا عن تحمل جدران ذلك البيت العتيق الذي يطبق على صدرها بقسوة، فلا تجد غير سعة البحر ملاذًا لها...

راقبت الليل وهو يبتلع زرقة البحر بصمت يقطعه صفير الريح الهائمة من وقت إلى آخر.... وقفت على حافة صخرة كبيرة... فتحت ذراعيها وتركت للهواء البارد حرية العبث بدموعها...

وكنورس صغير عازف عن الحياة ألقت بثقل جسدها وبقايا روح متألمة؛ ليصدر سقطوها ضجة، وتخبط من لا رغبة له في مزيد من الحياة... وسريعًا غاص جسدها بصمت لمعانقة العمق المعتم...

فتحت عينيها، واعتدلت في جلستها؛ لتؤكد لها وسادتها المبتلة بالدموع، وأنفاسها المتقطعة أنها لم تغادر بعد كما ترجو

-«كابوس جميل...».

تمتمت بها وهي تضغط على ساقيها بأسى، فحتى الكوابيس تبدو جميلة أحيانًا عندما تنهي معاناة طويلة...

40

حركت دواليب كرسيها؛ لتسير بمحاذاة الشاطئ، فليت ضجيج الذكريات يتوقف عن العبث بتفكيرها، وليت عقلها يرتاح عن التفكير قليلا كما فعلت قدماها، وليت من رحلوا يعودون، لكن أيًّا من ذلك لا يحدث، وكأن موجة عظيمة قد قذفت بها في عرض البحر، فلا هي قادرة على العودة إلى اليابسة، ولا لديها الإمكانيات للسباحة والنجاة بنفسها في أي اتجاه كان...

كل ما تستطيعه التشبث ببقايا قارب محطم تعيش على رمق من الأمل أن القدر سيتصالح معها مجددًا، ويعيدها لتلامس اليابسة بقدميها، وتتنفس عبق الراحة و الأمان...

توقفت؛ لتراقب آثار معركة التحرر التي دارت هنا قبل لحظات، وعلى الصخور المتناثرة بصلابة، تحطمت آمال الموج بالانطلاق بعيدًا وعاد إلى هدوئه المضطرب وهيجانه الهادئ، ذلك الذي يحتويه البحر بحنان مركب،

-«المسكينة!»

تمتمت بها وهي تقترب من بعض السرطانات الصغيرة والتي على ما يبدو أنها دفعت ثمن العنف المطرد للموج، دون أي ذنب اقترفته سوى أنها كانت بالجوار، تناثرت بقايا هامدة، ومنها من ينبض ببعض حياة، لكن لم تكن لتسعفها للعودة إلى ديارها، في حين ظهر

أن البعض كان أكثر تماسكًا وقوةً، لملمت شتات نفسها وبقليل من الصبر والإصرار عانقت البحر من جديــد وكأن شيئًا لم يكن.

راقبت الصغار التي همدت حركتها بأسى - على نفسها وعليها - فما ذنبها؛ لتواجه كل ذلك الألم، وهل دائمًا الصغار هم من يدفعون أخطاء الكبار... ربما! فهذا ما يحدث في كثير من الأحيان، الكبار يذنبون ويتهورون.. وعديمو الحيلة يشاركون في دفع الثمن رغمًا عنهم...

41

-«لماذا هم يخطئون ونحن من ندفع الثمن غاليا؟!»

تساؤل تحرر من صدرها، ثم ما لبث أن تحشرج في حلقها مضاعفًا شعورها بالألم، ضغطت بيديها على مسند الكرسي الذي احتضن جسدها النحيل بصدر رحب، لم يكن جسدها يختزل قوة كافية حينها، فقد نخره الإحساس بخفوت طاقتها الداخلية في الآونة الأخيرة - أو هكذا أقنعت نفسها - فما أسهل أن يقتنع الإنسان أنه ضعيف ومحطم؛ لأن هذا الشعور يقيه على الأقل جهد المحاولة للوقوف من جديد وتجاوز المرحلة الحرجة.

سيطر عليها إحساس بأنها مجرد طيف روح منكسرة تستند بيأس على بقايا جسد معاق، أخذ الضعف ينخر فيه دون توقف، وفي تلك اللحظة من بقايا النهار ومن رحم الضعف الواهي تولدت في أعماقها قوة استمدت جبروتها من مخزون وافر من الألم المترسب بين أوردتها، والذي عجزت الدماء المتجددة عن جرفه في أثناء دورته اليومية.

زود الألم كفيها بالطاقة الكافية، فاخترقت قوة قبضتها المنهكة جزيئات المعدن الذي صنع منه مسند كرسيها، متجاوزة الطبقة الرقيقة من الجلد الأسود الذي يغطيه، وتوغلت بعبثية في أعماقها.

ربما لهذا السبب يصنعون الكرسي الذي يتحرك به المعاق حركيًّا من المعدن؛ كي يسهل عليه تعذيب روحه من وقت إلى آخر – هذا ما اعتقدته حينها وتفكر فيه منذ أن قُدر عليها ملازمته – فالمعادن ناقل جيد للحرارة، والألم ما هو إلا ألسنة لهب تتصاعد من نار تتقد في أعماقها، خاصة عندما يكون الجسد عاجزًا عن الحركة، فمن يتحركون تتبدد حرارة أجسامهم ورواسبها الداخلية مع كل خطوة تخطو بها أقدامهم. بينما العاجزون تترسب تلك الحرارة في أعماقهم، ومع مرور الوقت وبغياب أي محاولة جدية منهم؛ لتجاوز الألم تتحول إلى بركان نشط - قد يخمد حينًا أو أحيانًا - بحسب الضجيج من حولهم، فكلما قل الضجيج اعتراهم السكون – سكون قلق – لكن ما إن تتحول الحركة المحيطة بهم إلى ضجيج صامت حتى يتبدل الحال، وتشرع براكينهم في قذف حمم ساخنة، تعلو منها السنة مشتعلة تصيب الجسد بألم شديد وأحيانا أخرى تترجمها العيون بدموع خانقة، وما أقساه عندما يجتمع الألم مع الدموع، وهذا بالضبط ما يحدث معها.

فكلما سيطر عليها هذا الإحساس، واعترتها تلك الحالة، تعمد إلى تفريغ قوة ضعفها المترسبة في كرسيها الذي بات سجنًا بالنسبة لها أكثر منه وسيلة مساعدة لحركة مشلولة...

42

ولأن للعجز قوةً جبارة عندما تواتيه الفرصة، فقد راحت قبضتها تتسلل إلى أعماق روحها لتقيد حركتها تماما كما قيد القدر حركة الجسد.

فكما حكم الوضع على الجسد بتجرع مرارة العجز، يتآمر الأخير ببرودة قاتلة على الروح التي تعودت أن تصارعه يومًا وتحاوره آخر عله يرضى بقدره، ويطلقها من قبضته الواهية، لتكمل طريقها المحتوم، فقد يكون لها القدرة على إخراجه من تمرده على مشيئة الله تعالى وتعيد له الحياة والأمل بطريقة أو بأخرى – فمنذ متى كانت الحياة مقرونة فقط بالجسد – فكم هي الأجساد التي ماتت أطرافها أو بعض منها فخلقت لها الأرواح أطرافًا معنوية أكثر قوة ومتانة، تأخذ الممنوحين إياها إلى أبعد ما تأخذ الأجساد الصحيحة أصحابها.

لكن ذلك لا يكون إلا حين تنجح الروح في التحرر كليًا من سيطرة الجسد، لكن حينها لم تتحلّ روحها بالقوة الكافية؛ لامتلاك زمام القيادة، والجسد يجيد تعذيبها من وقت إلى آخر، خاصة تلك الأوقات التي تكون فيها وحيدة – وما أكثرها – يساعده هذا الكرسي اللعين على ذلك أكثر مما يساعده على الحركة والتنقل.

–«آه...»

خرجت من شفتيها واهيةً ضعيفةً، فقد عاشت قبضتها فسادًا في أعماقها، ولأنها خبيرة بخفايا الروح المنهكة، فلم تتعب نفسها بالبحث عن ضحية تكيل لها ضرباتها الموجعة.. اكتفت بالانقضاض على قلبها؛ لتعصره بوحشية حينًا، وتكتم أنفاسه حينًا آخر، فأخذ المسكين يصرخ، ويقاوم، بكلّ ما تبقّى فيه من نبض خافت، مترجمًا تألمه واستغاثته بتأوهات خافتة، فإن مات هو ماتت كل آمال الروح بنهار جديد ينتزعه نوره من تلابيب ظلمة ليله الطويل...

تسارع نبضها بشكل جنوني؛ أملا في الخلاص، وأمام تلك المقاومة الضارية والرغبة الخفية في الحياة، ضعفت قوة الضعف في داخلها وانهزمت شر هزيمة، بعد أن توهمت للحظة أنها منتصرة لا محالة في معركتها الفاصلة.

ارتخت يداها أخيرًا، وراحت تتنفس بصعوبة وألم، ألم الجلاد والأسير، وكم يتضاعف الوجع إن اجتمع الاثنان في جسد واحد!!

في كل مرة.. وعندما تبدأ هذه التراجيديا في أعماقها، فإن كل ما تعلمته وكل تؤمن به يختفي من ذاكرة الذاكرة، لتفقد السيطرة على منحنى تفكيرها، فتبدأ معركة عنيفة تدور رحاها في أعماقها، ومهما أرادت التوقف لا تستطيع، تتعب من المقاومة فتقف حيادًا وتترك المجال للروح والجسد لينتصر من يملك القوة الكافية للانتصار والرغبة الأقوى في الحياة.

رمت برأسها بتهالك للوراء متوسلة لنسيم البحر العليل أن يتسلل

إلى أعماقها، ويجري عملية إنعاش سريع للمغدور به بين ضلوعها، وبينما الأخير يجري عملية إسعاف سريع تابعت عيناها السحب البيضاء، وهي تسبح في السماء باسترخاء حتى استعادت قدرتها أخيرًا على التنفس، وتعافى القلب من محاولة الاغتيال الفاشلة...

43

مسحت بقايا دموع طفت في عينيها، فليس أصعب عليها من معايشة ذلك الألم، حاولت شغل نفسها بمراقبة السرطانات الصغيرة، فلا رغبة لها في العودة إلى البيت الآن، ... من به روح تتنفس راح يتخبط بقوة واهية محاولا الخروج من المياة الضحلة وشق طريق العودة إلى دفء الوطن، فمهما كانت أوطاننا قاسية علينا ومهما حاولت نبذنا بعيدًا عنها - رحمة بنا أو غضبا علينا - فلابد وأن يقتلنا الحنين إليها وإلى تفاصيلها المشبعة بالوجع.

وكأن بقايا هواء تلك الأوطان المترسب بين أوردتنا – والذي تنفسناه طوال مراحل حياتنا حتى الفراق – يغتنم لحظات انشغالنا وغفلتنا، فيشدو بترانيم الشوق إلى منبعه الأصلي، لسماء عانق صفاءها، وتراب اختلط بغبرته، وبحر ارتشف من مائه المالح، ووطن يشعر فيه بالأمان.

ولأن الدماء التي تستوطن تلك الأوردة الضيقة تشعر بمعنى الحنين إلى الوطن تتعاطف مع بقايا الهواء التي تقتات على ما تسربه لها طوال اليوم، وتنقل صدى الألحان الصادقة بحزنها وحنينها نحو مراكز الإحساس في أدمغتنا، ومع مرور الأيام يتشبع العقل والروح والقلب بترانيم الشوق الأبدي لوطن لا يموت وإن ماتت كل سبل التواصل معه، فيتأصل الشعور بالغربة، ويعيش الجسد

المنشغل على حلم واحد يسيطر عليه وهو أن يعود، ولا مجال للراحة حتى يتحقق الحلم...

لهذا قاتلت بعض الصغار الضعف بكل ما أوتيت من عناد ورغبة بمعانقة وطن نبذها قبل ساعات قليلة بكل قسوة، في حين انشغل آخرون بالسباحة في برك الماء الصغيرة بين تجاويف الصخور التي تكونت بعد المعركة العنيفة، ربما استصعبوا طريق العودة ومشقاته وآثروا البقاء، فلماذا يكلفون أنفسهم مشقة العودة، وهم يدركون أنهم قد يُنبذون خارجًا مساء الغد، وربما قبل حلول المساء، فلماذا يعودون لمن لا يريدهم، أو ربما هم لا يملكون القوة التي تعينهم على اجتياز طريق العودة؟؟

44

في البداية آلمها ضعفهم واستسلامهم، لكن بسرعة بدلت رأيها وغمر قلبها مشاعر التعاطف تجاههم، فأي ذنب اقترفوه؛ ليعاملوا بقسوة هم أيضًا، وبأي حق يتم استبعادهم بتلك الطريقة عن بيوتهم التي لا يملكون سواها، أم لأنهم ضعفاء والبقاء دائمًا للأقوى، ولأن لا موطن لهم إلا رحم البحر الموار، تراه يضحي بأرواحهم الصغيرة لتطبيق ذلك القانون الأزلي؟

ثم لم تنظر لهم بعين الفوقية والازدراء، وما الفرق بينها وبينهم، فهي ذاتها لا تشعر بأي رغبة في المقاومة أو العودة لتلك الساحة التي ينعتونها «حياة»، يريحها كثيرًا البقاء في البركة الصغيرة التي تسبح فيها روحها بهدوء تام، لا نبض فيه ولا حياة.

صحيح أنها حاولت أن تغادر النطاق الذي تحبس نفسها بين جدرانه الضيقة، لكن كل محاولاتها كانت واهية فما أن تتسلل إليها زرقة السماء، وتتنفس الهواء النقي، وترغب في الخروج، حتى تعود سريعًا إلى القاع، وأخيرًا خارت قواها، واستسلمت مرغمةً لا راغبةً أو هكذا تصور لنفسها؛ كي يتوقف ضميرها عن تأنيبها.

كثيرون هم من يتحدثون عن العزيمة والتماسك، والنظر نحو الجانب الإيجابي، كل ما يكتبونه عن قهر الألم ومحاولة تناسيه ... بدا لها مجرد تشدق وتفلسف لاأساس له من الصحة-

هذا ما تشعر به في الآونة الأخيرة – فكل ذلك مجرد كلام، حروف جوفاء تزين صفحات الكتب المرتبة بأحكام فوق رفوف المكاتب، وأحيانًا الرفوف المركونة في عقولنا.

فحتى الليمون الحامض بحاجة إلى بعض السكر والماء البارد؛ ليصبح عصيرًا منعشًا، وليس لديها إلا بعض المياه المشبعة بالملح والرمال، وذكريات تزيد من ظمأها وتتعب روحها.

ليتهم فقط يشعرون بما يموج في أعماقها، ويتوقفون عن صنع تلك الفقاعات الملونة التي تختفي بمجرد ملامستها للهواء.

45

«كم هو جميل هذا الغروب!!...»

استدركت وهي تتطلع إلى الأفق بابتسامة شاحبة، فرغم كل شيء فلا تزال قادرة على استشعار بعض من روعة هذا المكان، هذه المساحة الصغيرة وليس سواها، والوقت الذي تمضيه هنا بقدر ما يرهق روحها بقدر ما يشعرها أن الأفق الذي يبتلع الشمس الآن سيلفظها بعد ساعات قليلة لتتوسط السماء من جديد...

أغمضت عينيها وفي محاولة منها للخروج من تضارب الأفكار الذي يكاد يفتك بها، حاولت التنفس بانتظام، فليس هناك أجمل من نسيم المساء الممزوج بعبق البحر يخفف عنها وطأة ألمها، فحتى في عالمها كان الغروب جميلا تزينه شمس تمدها بخيوط ذهبية من الأمل بالغد، وبعودة من تحب ليعوضها عن سنوات الانتظار، لكن يبدو أن وقت الغروب قد انتهى فلا وجود الآن إلا لقمر بالكاد يجاهد؛ كي لا تخفي السحب نوره بالكامل، ومهما حاول إلا أن كثافتها تغلبه، وهي لا تقوم بشيء سوى المراقبة وفي أعماقها شعور أن النور الباهت سيندحر في النهاية، وما جدوى المقاومة، فحتى الظلام الدامس أحيانًا كثيرة يشعرنا بالارتياح؛ لتحلق الروح بين جزئياته المظلمة بأريحية تامة، تحتضن أرواح من غابوا بعيدًا، وتعانق أحلاما ماتت قبل أن تتحقق.

46

ليست راضية عن حالها، ولا عن ليلها الخالي من النجوم، ولا حتى عن الظلام العابق بأنفاس بكائها الطويل، لكن الأمر ليس بيدها، حاولت....، تناست... وتجاهلت، لكنها أدركت بعد تجربة أن الإنسان مهما كانت ثقته بنفسه وتفاؤله بالغد.. فلابد وأن يصيبه في لحظة ما تصدع من الداخل- قد لا تكون هزيمة تامة - لكن صراعنا مع الحياة جولات ننتصر عليها حينًا وتغلبنا أحيانًا، واندحارنا في إحدى تلك الجولات لا يعني الهزيمة المطلقة، بل على العكس قد تكون الضربة المؤلمة التي نتلقاها سببًا في بث روح الحماسة في أعماقنا فتخولنا للفوز المعركة النهائية – كم تتمنى أن تحدث لها تلك المعجزة الآن وليس غدًا - لكن للأسف خلال تلك الجولات العديدة وفي مواقف كثيرة نتعرض لضغوط ومنغصات، ولأننا نحب أن نظهر بمظهر القوي والمتماسك، وأننا نجيد بتمكن تحويل الليمون الحامض لعصير حلو، فإننا نتعلم فن تقوية عضلات الوجه فلا يظهر ما يعتمل في داخلنا من ألم وبكاء، وأحيانا كثيرة صراخ صامت، يصل عنان السماء بألمه، لكن لا يسمعنا من يجلس على بعد خطوات قليلة منا، أو إلى جانبنا، ونتعود مع الأيام على فن الكتمان، والابتسام في وجه كل من يسألنا، ونرد بتلك العبارة المألوفة «لا تقلق أنا بخير» لكننا لسنا كذلك في حقيقة الأمر، ولعدم الانتباه لتضميد تلك الجروح النازفة، تبدأ جدران مقاومتنا بالتشقق والتصدع،

وربما انهيار وشيك؛ حتى تتلقى أرواحنا أخيرًا القشة الصغيرة التي تقصم ظهر البعير، فنسقط على الأرض، تتلاحق أنفاسنا، نرغب في النهوض، ومعاودة الوقوف، لكن لا شيء داخلنا يمدنا بما نريد، فنغمض أعيننا أخيرًا، ونستسلم لنوم عميق.

-«يكفي...»

قالتها بتضجر وهي تفتح عينيها محاولة عدم الانزلاق أكثر في دوامة التفكير تلك، فرغم إحساسها بتصدع جدران أعماقها ورغبة جنونية تلح عليها في الاستسلام لنوم عميق، دون أحلام أو كوابيس، لكن ليس الآن فلا تزال الروح تقاوم بنبض خافت ورغبة في الحياة لوقت أطول...

47

شد انتباهها أحد السرطانات الصغيرة يترك البركة بعد محاولات عديدة نجح في آخرها وجر جسده الصغير المتهالك وبعض أقدامه التي تأذت بشكل واضح، راقبته وقلبها يدعو له بالتوفيق، لكنه توقف على بعد خطوات قليلة من دياره، وهدأت حركته تمامًا.

هل يعقل أن الموت كان أقوى من رغبته في العودة؟

ربما!

أو لعله يستريح ليعاود المحاولة، تحركت في أعماقها مشاعر الرحمة نحوه أو لعلها أحست بالشبه بينهما، اقتربت أكثر ولحسن حظها أنه كان قريبًا كفاية لتمسك به.

قاومها في البداية، محاولا التملص من قبضتها، لكنه كان أصغر وأضعف من أن ينجح.

رغم ضعفه إلا أنها شعرت أنه يفوقها قوة، فعلى الأقل حاول التغلب على إصابته وتضاؤل حجمه، ولم يرض بالبقاء في مستنقع صغير، ربما لهذا السبب تمسكت به أكثر، ومنعته من الذهاب.

أرادت بطريقة أو بأخرى أن تستمد منه بعض القوة، أو لعل كل ما في الأمر أنها تحتاج إلى بعض الرفقة فحسب، شخص أو شيء ما يشعرها بالأنس، ويخرجها من دوامة الوحدة التي طغى

إحساسها بها وانزلاقها في دوامة تفكير متضارب تزامنًا مع غروب الشمس من السماء.. والأمل الذي يوشك أن يغادر سماءها الخاصة بعد رحيل والدتها.

تفحصت الصغير لترى مدى إصابته، قاومها في البداية لكنه هدأ بعد لحظات قليلة بين يديها، وكأنه هو الآخر يبحث عن رفيق أو صديق يشاركه لحظاته الأخيرة، لابد أنه يتألم مع فارق بسيط أنه لا يشتكي أو يتأوه مثلها، ولا يسهب في البحث عن من يحمله تبعات ما حدث ومهما كانت درجة الألم التي تغزو جسده إلا أنه يواصل طريقه وكأن شيئًا لم يكن.

تلقت لسعة من مخلب صديقها الصغير، تألمت قليلا لكنها ابتسمت له وراحت تداعبه:

-«يا لك من مشاغب صغير...!»

بكل تأكيد كان هناك في عرض البحر قبل سويعات قليلة، يلعب، ويلهو...، بل لعله قد صنع العديد من المقالب لوالديه أو لأصدقائه – لم يكن لديها إخوة أو أخوات لذا لم تفكر أن يكون لديه هو أيضًا – ابتسمت، وهي تتخيله يلهو، ويتشاقى على من حوله، وتذكرت مقلبها الذي ارتكبته بحق معلمتها في ثاني يوم لها في الفصل، حين غافلتها ودست لها جرادة صغيرة في حقيبة يدها، وما أن فتحت حقيبتها حتى علا صراخها المكان، وخرجت تجري كالمجنونة، وكأنها شاهدت حيوانًا مفترسًا!!..

كلفها ذلك المقلب كثيرًا، وكادت أن تُطرد من المدرسة نهائيًا، لولا دبلوماسية والدتها - ومالها الذي تدفعه طبعًا - وبطبيعة الحال لم تسلم من عقاب والدتها الصارم، لولا تدخل والدها؛ ليخفف من حدة غضبها عليها.

ومن حسن حظها وحظ المعلمة أنها غادرت الفصل دون رجعة، لتعود معلمتها السابقة، فلو كانت استمرت لاستمرت هي في مقالبها أيضًا؛ حتى تطفش، ولا تعود مجددًا، لم تكن سيئة على الإطلاق، لكنها كانت تحب معلمتها السابقة جدًا، ولم تتقبل فكرة أن تتركهم ببساطة.

والدها فقط مَنْ كان يضحك مما تصنع، ويستمتع وهو يراها تتقد بالحماس والجرأة، حتى أنه وفي اليوم التالي سألها هامسًا!

-«ماذا قررت أميرتي الصغيرة أن تضع في حقيبة معلمتها الجديدة في المرة القادمة؟»

تلفتت حولها لتتأكد أن والدتها غير موجودة وهمست له: -«أفكر في وضع ضفدع»

-«أوف».. قالها بدهشة مصطنعة:

- «من أين تأتيك هذه الأفكار الجهنمية!»

-«اششش... ستسمعك أمي..»

-«آه... صحيح...»

وبصوت أكثر خفوتًا أكمل:

-«وهل وجدت الضفدع الضحية الذي لابد وأن يخاف من صوت المعلمة وهي تصرخ في وجهه؟»

-«ليس بعد، لكني سأبحث عنه حتى أجده...»

-«حسنًا! بإمكاني مساعدتك في هذا الأمر... المهم ألا تنفذي الخطة إلا عندما تخبريني حتى أضمن نجاحها» غمز لها بعينه وخرج لعمله...

48

-«أشتاق إليه أكثر من أي شيء آخر، ليته هنا بجانبي!»

همست بها وهي تمسك بالمذكرات التي كانت تقرأ فيها قبل لحظات، من حسن حظها أنها وجدتها بين كتبه بعد رحيله بعامين، لم تستطع أن تقاوم رغبة الإبحار بين حروفها ومعانقة طيفه العالق بين سطورها...

-«هل تريد أن تراها؟»

خاطبت صديقها الجديد وهي تقلب صفحاتها...

-«أصبحت هذه السطور العتيقة أنيسي الوحيد، كل ما تبقى لي من الماضي، وكلما شعرت بالوحدة أو الغربة أعود إليها ليحلق طيفه الدافئ في عالمي»

قَلَّبت في صفحاتها وراحت تتابع بعينيها أحرفها التي توزعت على أوراقها بخط جميل....

49

-«تمضي سنوات عمرنا بسرعة عجيبة حتى إننا بالكاد نشعر برحيلها، لا أدري لم كل هذه العجلة؟، ولماذا لاتتمهل قليلا حتى نستعيد أنفاسنا المتقطعة من الجري وراء سراب اسمه – الغد – ذلك الذي لا يأتي أبدًا، ولا نصل إليه، فكلما ودعنا شمس اليوم ونستعد؛ لنخطو خطوة لملاقاة الغد ندرك أننا إنما نعيش يومًا آخرًا، ولا نزال ننتظر الغد أن يأتي ولا يفعل. الأمس فقط هو من يظل منتصبا أمام أعيننا، لا أنه يغيب فيريح ذاكرتنا ولا أنه يعود فنصلح ما أفسدته أيدينا أو أخذه القدر منا، فتبقى بعض أنفاسه عالقة بين منعطفات ذاكرتنا لحظات عطرة تهمس في آذان أرواحنا بين الفينة والأخرى، وتسقي قلوبنا من نهر لا ينفذ من صدى ضحكات جميلة تعيد له نبضاتها القوية وشعورها بأنها لا تزال بخير؟؟!!

رغم أني لا أتوقف عن التفكير سوى بالغد، لكن اليوم بالذات لم أرغب في مغادرة الماضي، ولا أدري لماذا شعرت بمدى روعته، غطت ألبومات صوري مكتبي الصغير، صورتي وأنا لم أتجاوز العام، ثم وأنا في أول عام دراسي، كانت أمي تقول لي دائمًا إنني طفل رائع لكني لم أعترف بهذا الادعاء إلا وأنا أتفحص تفاصيل وجهي الصغير اليوم – ليتها موجودة الآن ليكون اعترافي أمامها - رحمة الله عليها - فما أكثر اللحظات التي نتصفح فيها ذكرياتنا دون أن نستشعر قيمتها، لا ندرك كم كانت رائعة ومميزة حقًا

إلا ونحن نجتاز منعطفًا فارقًا في حياتنا، حينها فقط نشعر بقيمة تلك الشذرات البسيطة التي نحتتها الأيام في ذاكرة الزمن.

أول صورة، أول عيد ميلاد، وحتى سقوط أول أسناني اللبنية، كنت دائمًا أخجل من هذه الصورة بالذات، وأتمنى تقطيعها وكدت أن أفعل لولا أن أخفتها والدتي عني، والحمد لله أنها فعلت فكم هي رائعة هذه الابتسامة المثقوبة.

ساعات قليلة تفصل بين سمير الابن وسمير الأب والابن معا، بضع ساعات ويدخل عالمي طفل جديد ليناديني بوالدي – كم هي رائعة هذه الكلمة – مشاعر شتى تختلج في صدري، لا أدري كيف سيكون شعوري وأنا أحمله بين يديَّ، لكني متأكد أنه سيكون شعورًا مميزًا، بل لا يمكن وصفه بكلمات، ولا يمكن أن يتكرر، ولو رزقت بعشرة أطفال بعده.

سأملأ عالمه الصغير بالصور، لن أترك شاردة أو واردة إلا وأؤرخها له لأترك له بعض الذكريات التي سيسعد بالمرور بها يومًا ما...ربما وهو يستعد ليكون أبًا هو الآخر».

توقفت عن القراءة وحاولت الابتسام عند هذه النقطة فلم تستطع – ترى لماذا كان مستعجلا على الذهاب، أما كان بمقدوره الانتظار؛ حتى يكتمل ألبوم صورها هي أيضًا؟ كان يعشق التصوير، وتوثيق تلك اللحظات المميزة التي لا تعود، آخر صورة التقطها لها وهي تحتفل بعيدها التاسع، بعدها توقف توثيق الذكريات...

50

-«ماذا تفعل يا أبي؟»

وأخيرًا وجدته بعد بحث طويل منهمكا في ترتيب ألبومات صوره في حديقة المنزل.

-«تعالي؛ لتساعديني في ترتيب هذه الصور...»

أفسح لها لتجلس بجانبه وهو يشير إلى مجموعة صور مبعثرة أمامه لترتبها في الألبوم الجديد ...

-«رتبي هذه المجموعة على حسب التسلسل الزمني المؤرخ خلف الصورة، فهذا ضروري جدا...»

لم يكن الأمر سهلا ومسليًا كما توقعت، فالصور كثيرة وأحيانا تعجز عن التعرف على بعض الوجوه

-«من هذا الذي يقف إلى جانبك؟!»

قالتها وهي تشير إلى صورته مع شخص آخر بنفس عمره تقريبًا

-«يا الهي... بحثت عنها طويلا ولم أجدها، أين عثرت عليها؟»

-«هنا، من يكون؟»

لم يجبها بل راح يحدق في الصورة، وعلى شفتيه ابتسامة

امتزج فيها الحزن والشوق معًا، وكأن الماضي قد أسر روحه لبرهة من الزمن...

التفت لها وراح يخاطبها:

-«هل تدرين يا بنتي! بعض الصدمات مهما كانت قوية إلا أن قلوبنا تبقى قادرة على تحملها، لأنها تظل في نطاق تحملنا، بينما بعضها الآخر مهما حاول الآخرون من حولنا تهوين الأمر علينا، إلا أنهم يعجزون تمامًا... تعجز كلماتهم حتى عن ملامسة شغاف تلك القلوب المكلومة، وبالكاد تشكل كلماتهم طلا خفيفًا تتساقط حبيباته على أرض تشققت من جفافها الشديد وحرارة الشمس، فتتبخر القطرات قبل أن تلامس وجه الأرض...»

كانت تهز له رأسها دون حتى أن تفهم ما يقول بينما أكمل هو الحديث وكأنه يخاطب نفسه:

-«يقال إن الرجال لا يبكون إلا نادرًا، هذا صحيح لكن حين يبكون فإن بكاءهم يكون عميقًا عمق الألم الذي غرس رماحه في قلوبهم الصلبة، يومها غمرت دموعي عالمي، نعم بكيت ولا أشعر بالخجل أن أعترف بذلك وأنا رجل، بكيت الحاضر والماضي، بكيت الألم المعتصر في أعماقي، بكيت الخوف على نفسي وعلى من رحل، بكيت العجز وأنا في كامل قواي، انهمرت أدمعي حتى ضاقت بي ذرعًا وجفت منابعها فصرت أبكي بلا دموع وحرقة أكثر، بكيت الحبيب والرفيق، بل انعكاس روحي التي تسير أمامي، جسدًا آخرًا أودعت فيه بعضًا مني.

فأي فاجعة يصاب بها القلب عندما يُغتال الجسد الذي أودعنا فيها قبسا من روحنا، يتوقف النبض فتنطلق الروح بعيدًا وقد تتيه بين سراديب المجهول ولا نجدها مجددًا، فلا هي قادرة على العودة إلى أجسادنا ولا هي قادرة على العثور على جسد آخر، فأمثال هؤلاء لا يكررهم الدهر، ولن يكررهم.

- «تعال لتودع صديقك...»

هكذا قالها لي ببساطه أو لعله كان مثلي لا يزال تحت تأثير الصدمة لفراق فلذة كبده وابنه الوحيد، ظننتها مزحة، أو أحد مقالبه التي أجبر والده على مشاركته أحداثها، لكن ما إن وضعت سماعة الهاتف حتى طرق والدي باب غرفتي يطالبني بالإسراع للنزول معه.

كان الممرض يفتح باب الثلاجة ببطء ومع كل ثانية يسحب بها باب ذلك السرداب المظلم والمخيف، تقل كمية الهواء المندفعة نحو رئتي، نظرة واحدة فقط ربما لثانية أو لعشر من الثانية، حتى غابت عني كل المشاهد التالية لا أدري هل أغمي علي أم توقفت حواسي عن الإحساس؟ كان الجسد يتحرك كرجل آلي، بينما عقلي غائب تمامًا عن المشهد.

حقيقة أعجز عن تذكر أي شيء بين تلك النظرة التي تجاوز وقتها أقل من ثانية وبين اللحظة القادمة وهم يهيلون التراب على جسده الغض..

صمت لثواني قبل أن يكمل بصوت متحشرج «كيف قادتني قدماي إلى المقبرة؟ هل حقا انهرت أمـام جسده، ورحت أتشنج وأبكي وعجز والده ووالدي بمساعدة الممرض من تخليص جسده – أو بقايا جسده – من أحضاني؟ هذا ما قالوه لي، أما أنا فلا أتذكر شيئًا من هذا، ربما هي الذاكرة أشفقت علي من هذا المشهد فغيبته بين منحنياتها المظلمة، لكنها للأسف عجزت عن تغييب حقيقة أن «خالد» مضى دون رجعة...!»

-«صديقك»

قالتها وهـي تنقل بصرها بين صـورة الشاب المتبسم وعيني والدها.

-«بل رفيقي، تشاركنا سنوات طويلة وذكريات أطول، ضحكنا معا وَحَزَنَّا معا، ذهب فجأة، وبينما أنا أبيت في غرفتي الفارهة، يبيت هو تحت أكوام التراب، كم تمنيت ليلتها أن أذهب إليه، فإما أن أبيت بجانبه أو أنتشل جسده وأحضره للمبيت عندي...»

قرب الصورة من شفتيه وأودعها قبلة طويلة، ليودعها هي الأخرى قبلة أطول:

- «كنت أبحث عنها منذ زمن، شكرا غاليتي...»

51

مسحت دموع غافلتها وهي تستشعر دفء قبلته وحضنه الذي تعودت أن تغوص فيه وترتشف منه حد الارتواء.

-«هل ترى يا صديقي سارت الأمور بشكل جنوني؟» قالت مخاطبة الصغير بين يديها:

-«لا أدري لماذا! في اللحظة التي شعرت فيها أن والدي يوشك أن يعود من جديد يغمرني بحبه واهتمامه، اختفى كل شيء، وكأن شيئًا لم يكن، وكله بسبب تلك الرغبة المجنونة التي رفضت أن تنام حتى الصباح... هاهي الأيام تمضي وتساؤل يذبح صدري...

لماذا لم يأخذني القدر أنا ويتركها تكمل حياتها كما تريد، فالذنب ذنبي، أنا الملامة، ذهبت لأعانق طيفا لا يفكر بالعودة، وخسرت روحًا كانت طوال الوقت إلى جانبي...

لكن لم أمت، بل بقيت لأسمع صدى نحيبي الصامت يتردد في أرجاء قلبي الذي تفنن الصدأ في تزيين جدرانه المتصدعة، فكما يبدو أن القدر يحكم على بعضنا، لحكمة خفية، بتجرع مرارة الندم والألم لأنهم يستحقون أكثر من الموت، وها أنا أتجرعهما بمعية شعور لا يوصف بالعجز... ياالله... لطفك وجميل عفوك!!»

فركت جبينها كعادتها عندما تحاول سحب نفسها من دوامة

التفكير المؤلمة – لكن يبدو أنها اليوم قد انزلقت كثيرًا في دوامة التفكير المتضارب وتعجز عن إعادة نفسها مجددًا – التفتت إلى الصغير بين يديها وأكملت بصوت مخنوق:

– عندما رأيتك تحاول الوصول إلى البحر رغم إصابتك تابعتك لعلك تشجعني على مزيد من المقاومة، لكنك خيبت ظني، وتوقفت في منتصف الطريق مستسلمًا للإصابة واليأس فشعرت أن تشابهًا من نوعٍ ما يجمع بيننا، فكلانا استسلم للعجز.

تقسو الحياة علينا في أوقات كثيرة بل هي كذلك منذ اللحظة التي ينتزعوننا فيها من عالمنا الدافئ الذي احتضننا تسعة أشهر لا تقوم بشيء سوى أن نحلم ونحلم، لكن ما أن يخرجونا إلى العالم الفسيح حتى تتوقف كل أحلامنا، ونبدأ بالصراخ والبكاء وكأننا ندرك ما ينتظرنا في الخارج...

ومهما اعتنى بنا من حولنا فلابد أن يتركونا يومًا ما... يزرعون في قلوبنا الضحك والمرح ويشعروننا ألا خوف من الحياة؛ لأنهم سيكونون معنا طوال الوقت، يغدقون علينا الحب والحنان ودفء أحضانهم حتى نشعر أننا نسير في جنة لا تنتهي مروجها، لا.. بل نشعر أننا طيور تحلق بأجنحتها في سماوات واسعة وصافية صفاء أصواتهم ونظراتهم الحانية...

يهمسون في آذان أرواحنا وعودًا بأنهم سيكونون معنا دائمًا... ثم لا يلبثون أن يدوسوا تلك الوعود بأقدامهم، ويمضوا بعيدًا ليتركونا فريسة الوحدة والألم...

لماذا يرغبون في ولادة الأطفال دون أن يتأكدوا من قدرتهم على تحمل مسئوليتهم... لماذا يأتون بنا إلى هنا ثم يتركونا ويرحلون بعيدًا باختيارهم أم رغمًا عنهم... ها هما قد رحلا بعيدًا وتركا روح طفلتهم الصغيرة أسيرة الألم والعجز والخوف من الغد...

سئمت من العيش في دائرة الأحلام التي لا تتحقق وتجرع واقع مرير لا يستساغ... تعبت من التعلق بأهداب غدٍ لا يأتي إلا بما أكره... تعبت من توديع من أحب... تعبت من ذاتي التي لا تقبل بما يقدم لها وتبحث عما لا وجود له... ومن هذه النفس الحالمة التي تسكنني وترفض أن تتركني أعيش بهدوء.

فها أنا أواجه قدري الذي لا أستطيع أن أغيره وسأعيش بقية أيامي حبيسة مشاعر تطحنني من الداخل، ليت الأيام لا تطول بي فما جدوى العيش وقلب روحي صامت لا ينبض بالحياة ولماذا قد أرغب في الغد، ولا أحد معي يشاركني لحظاته الجميلة...

أشتاق إلى والدتي كثيرا لحنانها الذي كانت تخفيه خلف صرامتها المصطنعة... لموجات غضبتها التي كانت تملأ أركان البيت وحتى لانشغالها الدائم الذي أبعدها عني... ولعنادها الذي حرمنا معًا منه...

ليته لم يرحل بعيدًا... ليته بقى إلى جانبنا! فما كان لكل هذا أن يحدث لو كان قريبًا منا يعتني بي وبها... نعم هو الملام ولست أنا ولا هي... فهو الذي غادر دون أن يفكر في طفلته الصغيرة

هو الذي انسحب بسرعة دون أن يثبت رغبته في البقاء... أكرهه بقدر حبي لـه... أمقته بقدر اشتياقي لـه... أحتقر ضعفه بقدر احتياجي لقربه»

توقفت عن الحديث... بعد أن شعرت بشيء في أعماقها يحترق، ويحرق معه كل تفاصيل جسدها وروحها الجريحة...

52

-«تعبت وما عدت أحتمل المزيد..!»

تحركت بها شفتاها بمرارة وهي تحدق في الامتداد المتهادي أمامها وقد كاد المساء أن يخفي زرقته، اختفت نظرة الأسى من عينيها لتحل محلها نظرة جامدة لا حياة فيها...

-«حسنًا ولم لا!»

قالتها دون أن ترمش عينيها، أخذت نفسًا عميقًا وهي تضع صغير السرطان في حجرها، وبيديها حركت دواليب كرسيها إلى الأمام وملامح وجهها لا تحمل إلا الجمود ومزيدًا من التحدي.

كان الصمت يخيم على المكان يقطعه صوت الأمواج وصرير الدواليب التي أخذ صوتها يخفت كلما غاصت أكثر بين الرمال المتبلة بالملح.

ما إن تجاوزت الخط الفاصل بين اليابسة والماء حتى اختفى صوتها تمامًا، سرت رعشة خفيفة في جسدها حين راح رذاذ الماء البارد يعبث بوجهها وقميصها الحريري، فأغمضت عينيها، وقررت أن تتوحد مع البحر كما فعلت في صغرها، حينها فقط لن تشعر ببرودته أو ملوحته، بل ولن تشعر به وهو يكتم أنفاسها، ويسحبها برفق عنيف نحو أعماقه – طالما تجسدت لها تلك اللحظة

في كوابيسها - استحضرت صورة والدها وهو يلعب معها على الشاطئ، ابتسامته، ضحكته، كان يسبقها إلى الداخل بخطوات، فتح لها ذراعيه وبإيماءة من رأسه دعاها لترمي نفسها في حضنه، اقتربت أكثر فكيف لها أن تقاوم هذا الإغراء!!..

53

-«توقفي... إلى أين تذهبين؟»

كان صوتها حازمًا وهي تضع يدها على كتفها وتمنعها من الاستمرار في التقدم..

-«سأسبح قليلا!»

قالتها وهي تهز كتفيها بتضجر...

-«ألا تقرئين الإرشادات التي تحذر من النزول للبحر وقت المغيب!»

-«بلى ! ولكني تعودت السباحة في مثل هذا الوقت، لم يمنعني أبي من القيام بذلك مسبقًا، كان يسمح لي بالنزول ويبقى بالقرب مني».

-«ولم أسمح لك بتعريض حياتك للخطر من أجل بعض المتعة، في حين بوسعي أن أجنبك الوقوع فيه من البداية، تعرفين جيدًا أني لا أجيد السباحة وإن حدث لك مكروه فإما أن أغرق معك، أو أتركك توجهين مصيرك وحدك وهذا ما لا يمكن أن يحدث...»

تكلمت وهي تنظر إلى البحر بامتعاض:

-«أستغرب لم تعشقون المغامرة بأرواحكم لأجل متعة زائلة؟.. البحر لن يذهب بعيدًا، وأنت بوسعك أن تأتي إلى هنا في وقت آخر

والسباحة بحرية دون الحاجة لتعريض حياتك للخطر...»

-«أنتِ تقولين ذلك فقط؛ لأنك لا تحبين البحر، ولا تحبين أبي ولا تحبينني أنا أيضًا...»

-«وما دخل هذا بذاك، ثم من قال لك أني لا أحبك؟»

-«لو كنت تفعلين لما افتعلت المشاكل معه ليرحل بعيدًا...»

-«بح صوتي وأنا أكرر: من يريد البقاء سيبقى، ومن يعشق الرحيل فسيبحث لنفسه عن حجج واهية للتخلي عن مسئولياته، أعلم أنك تحبينه جدًا، ولا أطلب منك أن تحبيني فما أقوم به معك أنما هو واجب ولا أمنّ به عليك، كما أن ما أقوله لك الآن ليس نابعًا من رغبتي بإثبات وجودي – كما يحلو لك اتهامي - كل ما في الأمر أن ما تقدمين عليه غير صائب، قد لا أجيد الاستماع لموسيقى البحر كما تفعلين أنت وأباك، ولا يهمني ما هو أصل النورس والغروب بالنسبة لي ما هو إلا انتهاء يوم عمل للحصول على بعض الراحة؛ للاستعداد ليوم جديد، لكن ما أعرفه تمامًا أن نزولك الآن ليس صحيحا ويشكل خطرا على حياتك، لذا أطلب منك ألا تفعلي»

رغم سعادتها وشعورها بالانتصار كلما خالفت والدتها في كل ما تقوله أو تطلبه منها، ورغم موجة الغضب التي اجتاحتها من الداخل إلا أنها أذعنت أمام صرامة والدتها ومنطقها الذي عجزت عن الرد عليه أو تجاهله كما كان يفعل والدها ولم تجد بدًا من الإذعان...

54

أفلتت يدها وتوقفت عن دفع الكرسي، تنفست بعمق محاولة تشتيت مشاعرها المضطربة، وبسرعة عادت خطوت إلى الوراء...

-«لذلك كان ينسحب كلما خاضا نقاشًا ما... ولهذا انسحب بعيدًا أيضًا، ليس لأنها كانت متسلطة في رأيها أو متمردة عليه بل لأنها كانت دائمًا على حق، لا تترك لأحد المجال لهزم حجتها أو التشكيك في قراراتها، كانت أقوى منه لذلك رحل...»

تأكدت أنها أصبحت بعيدة عن الخطر، وراحت تتلفت حولها بلهفة وهاجس ما يدغدغ مشاعرها بأنها ستجدها بالقرب منها تنظر لها بفخر أن أذعنت لنصحها وتخلت عن فكرتها المجنونة فقط لأنها تريد ذلك، لكنها لم تجدها وإن كان صدى صوتها لا يزال يتردد بقوة في مخيلتها...

-«علي أن أعود فلابد وأن يكون جدي قلقًا علي»

خاطبت نفسها وهي ترغب حقًا في الرحيل بعيدًا، وقبل أن تبتعد أمسكت بمذكرات والدها، حدقت فيها مليًا، فرغم أن روحه التي امتزجت بحروفها لم تفارقها لحظة منذ رحيله، لكنه لم يكن هناك ليمنعها من أذية نفسها، بل على العكس كان يحثها لتغرق أكثر في ظلمة ذكريات لا تعود ولا يعود صاحبها.

- «من يرحلون لا يعودون أبدًا...»

هذا ما قالته والدتها قبل أن يضطرها القدر لترحل هي أيضًا دون أمل بالعودة...

55

اقتربت من البحر حتى تجاوزت عجلات كرسيها الخط الفاصل بين الحياة والموت مجددًا، وبما تبقت بها من قوة رمت المذكرات، التي طفت قليلا ثم لم تلبث أن غاصت في الأعماق المظلمة

-«هناك... مكانها الصحيح حيث هو أراد لها أن تكون... فلا فائدة من التمسك بالذكريات التي لا تعود، علي أن أتقبل فكرة أنه لن يعود، يكفي أني خسرت الإنسانة الوحيدة التي أعطتني دون حدود، وأنا متعقلة بإسبال حلم لا يتحقق، فلا داعي لأن أخسر ذاتي أنا أيضًا، أعلم أن الأمر لن يكون سهلا، لكن علي أن أتجاوز هذه المرحلة عاجلا أم آجلا، ولا داعي لمزيد من الهروب»

نظرت إلى الصغير المسترخي في حجرها، أمسكته بيدها وتوجهت إليه بالحديث هذه المرة:

-«هل ركنت إلى الاستسلام أنت أيضًا يا صديقي... أمامك فرصة أخيرة للعودة إلى ديارك فلا تضيعها»

اقتربت أكثر ووضعته على الرمال، راقبته وهو يتخبط ويرسم حلقات دائرية حول نفسه بما تبقى له من قوة بتشتت واضح، أو أنه لا يعرف طريق العودة، هدأ عن الحركة تمامًا، فهزت رأسها بحسرة وكادت أن تغادر وتتركه حيث هو، وقبل أن ترفع بصرها عنه دبت الحياة فيه من جديد وأخذ يتحرك من جديد، لكن هذه

المرة بتخبط أقل وتركيز أكثر، مضى في خط مستقيم باتجاه البحر بما تبقت له من أطراف سليمة وكأن هدوءه كان فقط لتمييز صوت البحر ومعرفة الطريق الصحيح إلى العودة.

وعلى الرغم من صعوبة تحركه إلا أن المسافة بينه وبين البحر أخذت تتقلص بشكل كبير، لوهلة أحست أنها هي من تسير، رأت سلمى الشابة الفتية تمشي بخطوات واثقة على الرمال الطرية، ترسم خطوتها وتفتح ذراعيها لتعانق النسيم البارد القادم من عمق البحر والذي حمل روحها وراح يحلق بها نحو الأفق

-«استمر يا صديقي...! تكاد أن تصل...»

مسحت بقايا دموع حاولت تشويش الرؤية عليها فلا تريد ما يمنعها عن رؤية هذه اللحظة الجميلة - قهر العجز وتنفس الحياة من جديد - ما أجمل أن تدب الحياة مجددًا في الروح المنهكة؛ لتتغلب على الضعف الذي قيد الحركة من الداخل لفترة من الزمن!

وسريعًا احتضنت موجة ذلك الجسد الصغير الذي راح يسبح فيها لبعض الوقت قبل أن يختفي دون أن يفكر بالالتفات إلى الخلف.

ودعته بابتسامة، ثم ألقت نظرة أخيرة إلى الأفق حيث الشمس قد بدأت تغط في النوم، وغادرت أخيرًا فغير بعيد عجوز لا يزال يهتم لأمرها ويقلق لتأخرها، وغير بعيد أيضًا يوم جديد ينتظرها لتعيش ساعاته بدقائقها وعليها أن تستغلها جيدًا...

56

-«تأخرت! قلقت عليك كثيرًا...»

قالها وهو يتجه نحوها وأكمل وهو يتفحصها:

-«كنت على وشك الخروج للبحث عنك...»

-«آسفه يا جدي... لم أشعر بالوقت»

-«أرجوك يا بنتي! كفاك عبثا وانتبهي لنفسك...»

-«لا تقلق أنا بخير...»

قالتها وهي تتجه لغرفتها، فهي بالفعل تشعر أنها بخير، صحيح أن أمامها الكثير لتتجاوز هذه المرحلة لكنها الآن تشعر أن بمقدورها مغادرة ذلك المستنقع الذي ظلت أسيرة مياهه الراكدة فترة من الزمن ...

-«أين تذهبين فلديك ضيف؟»

-«ضيف؟!»

-«نعم وينتظرك منذ فترة في غرفة الجلوس، اذهبي لترحبي بضيفك وسأحضر لكما شيئًا تشربانه...»

57

فكرت في تلك اللحظة كثيرًا بل تخيلتها وتخيلت أدق تفاصيلها وفي كل مرة كان ترحيبها به يختلف، وإن كان دائمًا ينتهي بحضن ممزوج بدموع الفرحة.

لكن عوضًا عن الإسراع نحوه، تسمرت في مكانها وهي تحاول التأكد من كون ما يحدث أمامها حقيقة وليس واحدا من تلك الأحلام التي ضاقت بمخيلتها وخرجت تتنفس بعض الهواء والنور، لتخدعها وتصور نفسها على أنها حقيقة...

«هل تتأخرين في العودة هكذا دائمًا، قلقلنا عليك»..

قالها وهو يتجه نحوها مسدلا ستار النافذة التي كان يحدق من خلالها وكأنه يبحث في الخارج عن شيء ما...

إذًا ليس هذا أحد أحلامها، فها هو يقف الآن بين يديها بشحمه ولحمه، نبرة صوته لم تتغير كثيرًا، وإن كان جسمه قد امتلأ فتغيرت ملامح وجهه نوعًا ما.

وعندما لم يحصل منها على إجابة أو حتى ردة فعل على غير المتوقع أكمل هامسًا:

-«كيف حالك يا سلمى؟!»

«..........»

-«سلمى!»

-«أتمنى ألا تكون زيارتك لجدي طويلة، وإن كانت كذلك فسأنتقل للعيش عند خالي حتى تغادر»..

قالتها وهمت بالمغادرة...

-«انتظري»..

اقترب منها أكثر وقال بصوت خافت:

-«متأكد أن ما سأقوله لن يكفر عن ذنبي لكني حقًا آسف لما حدث لك ولولدتك».

-«شكرًا، هل لي بالانصراف الآن؟»..

قالتها دون أن ترفع بصرها نحوه

-«سلمى أرجوك التفتي إليَّ...فلا أزال والدك رغم كل ما حدث»

-«آه صحيح.. اعذرني لكن خمسة أعوام كافية لأنسى أنك كذلك...»

وقف بينها وبين الباب ليمنعها من الخروج وهو يقول:

- «أنا حقًا آسف...»

صمت لبرهة قبل أن يكمل:

-«أدرك تمامًا أني أخطأت في حقك كثيرًا، لكن...»

بتر عبارته وأطرق ببصره إلى الأرض قبل أن يكمل، وهو يهز كتفيه:

-«لم أستطع تحمل المزيد حينها، كان لابد لأحدنا أن ينسحب من حياة الآخر؛ حتى يعود الهدوء وتواصل السفينة الإبحار، بقاؤنا الاثنين في بيت واحد لم يكن إلا ليفاقم المشكلة ويزيدها سوءًا...»

-«تعاطفت معك كثيرًا!... هل لي أن أغادر الآن، فأنا مرهقة وأريد أن أرتاح قليلا...»

-«سلمى... لا تكوني قاسية..!»

أجبرتها كلماته أن ترفع بصرها نحوه فقالت وهي تتصنع الدهشة:

-«هذا على أساس أن قلبك كان يقطر حبًا وحنانًا وأنت تذهب بعيدًا دون حتى كلمة وداع لابنتك الصغيرة، وتمر السنوات تلو الأخرى دون حتى أن تسأل عنها، وكأنها كانت السبب في ما يحدث بينكما، ولزامًا عليها أن تشارككما دفع الضريبة ...»

-«ها أنا قد عدت، قد تكون عودتي متأخرة أدرك ذلك جيدًا، لكن الأمر خارج عن إرادتي، لم أطق تحمل فشلي في أهم خطوة في حياتي، حاولت جاهدًا إصلاح الأمر أو تقبله كما هو، لكنني عجزت، وفي لحظة وجدت نفسي في أرض بعيدة أرهق نفسي في العمل ليل نهار لأنسى دون جدوى».

-«لماذا عدت الآن؟»

-«وهل هذا سؤال!»

-«لست بحاجة إلى شفقة من أحد»

-«عنيدة كما أنتِ، ثم ما دخل الشفقة بالموضوع؟ سلمى أنا هنا الآن لأعتني بك، ابنتي الصغيرة»

-«لكن لم تكن هنا فيما مضى... أعجبني كثيرًا كلامك عن التفاهم والسفينة والبحر، لا يزال خيالك واسعًا كما كان ولا زال ارتباطك بالبحر كما هو...

لكن ألا تشعر أنك في أثناء خطابك السابق همشت أحدهم، اتخذت قرارك، وكأن لا أحد بالسفينة سواكما، صحيح كنت صغيرة حينها لكن أيًّا منكما لم يفطن أني أستوعب كل ما يحدث، وأتألم أيضًا.

كل ما فكرت فيه هي حقوقك وماذا تريد، ورغبتك الجنونية في إثبات وجودك أيا كانت النتائج؟ وعندما فشلت تخليت عن كل شي وعن كل وعودك ورحلت بهدوء، ليتحمل الآخرون نتيجة قرارك أنت»

صمتت لبرهة وأكملت بصوت تخنقه العبرات:

-«الآن فقط أدركت ماذا قصدت أمي - رحمها الله – بفقدانها للشعور بالأمان معك، فأنت تحب وتعطي وتغدق بالمشاعر الفياضة

لكنك حين تفكر في الابتعاد تنسى كل شيء وكأنه لم يكن...»

رنت لحظات من الصمت قبل أن يقول بصوت خفيض:

-«لم أتوقف مرة واحدة عن إرسال ما تحتاجين إليه»

-«أها»

ابتسمت بمرارة قبل أن تكمل:

-«هكذا الأمر إذا... أنا بالنسبة لك كنت مجرد التزام وعبء مادي لا أكثر ولا أقل... شكرًا على كل ما قدمته لي...»

قالتها وهمت بالخروج.

-«أين تذهبين؟!»

-«شكرتك على خدمتك التي قدمتها لي أعتقد من حقي أن أذهب الآن...»

-«سلمى...عدت لأعتني بك، أدركت خطأي وأنا هنا لأكفر عنه، فمنذ رحيل والدتك وأنا أفكر في شأنك ولم يهدأ لي بال حتى حزمت حقائبي...»

-«حسنا! ماذا إن قلت لك أني سمعت جدي وهو يحدثك بالهاتف قبل أيام ويرجوك أن تأتي»..

قالتها وهي تحدق في عينيه بتحد واضح.

-«ماذا؟»

-«للأسف نعم... ليتني لم أفعل ربما حينها كنت سأطير من الفرحة وأنت تقف أمامي بعد سنوات من الانتظار، لكن هذا ما حدث ببساطة ما كنت لتأتي أو حتى تفكر في الأمر لولا إلحاحه عليك...

ليتك تفهم أن حقوق الأبناء ليست مجرد التزام مادي أو إجباري فقط، أو مجرد وقت ممتع تقضيه مع أطفالك في أوقات فراغك، بل هي أكثر من ذلك بكثير، كنت تتقن فنها في ما مضى، أو لعلك فقط كنت مبهورًا بكونك أبا لأول مرة وعندما تلاشى الانبهار نسيت كل شيء...

لا أنكر أني أفتقدك ولا أزال، بل كانت ذكرياتي الجميلة معك هي أنيسي لأوقات كثيرة، حتى مذكراتك التي نسيتها من ضمن ما نسيت حفظتها عن ظهر قلب، وأنا أبحث عنك بين سطورها المتهرئة، أحببت روحك التي أخفيتها بين الحروف المتراصة بعناية، وصنعت منها أبًا روحيًّا أسامره ويسامرني، جعلته يبني لي قصورا كثيرة على شاطئ البحر ليأتي الموج ويهدها بالكامل ونحن نراقبها ونضحك...

لكن حقيقة أقولها وأشعر بها ما عدت أتمنى أن تعود، فحين مرت الأيام وفكري مشغول بهاتف البيت، أهرع نحوه كلما رن على أمل أن يأتيني صوتك من هناك ليخبرني بأنك تشتاق إلي، وتعدني أنك ستعود أو على الأقل ستزورني من حين إلى آخر، لكنك لم تفعل حتى نسيت كيف تكون نبرة صوتك...

في كل مرة أخرج فيها من مدرستي وأتطلع في وجوه القادمين وقلبي يؤكد لي أنك ستأتي ولو لمرة واحدة وتقول لي إنك لا تزال تحبني.. لكن الوجوه تتوالى وتختفي ووجهك لا يطل علي حتى نسيت ملامح وجهك...

في كل عام أطفئ شمعة جديدة من عمري أفتح الهدايا الواحدة تلو الأخرى بلهفة على أمل أن أجد بطاقة صغيرة مكتوب عليها «من والدك المحب»...لكن لا هدايا ولا حتى بطاقات حتى نسيت خطك الذي طالما خططت به اسمي على الرمال.

مع تلاشي كل هذه الأمور من ذاكرتي تلاشت ثقتي بك، أدركت متأخرة جدًا أن تعلقي بك وحبي لك وانتظاري الدائم لعودتك ليس حبًا لشخصك أنت، فأنت لم تعد لي إلا ذكرى مضت بعيدًا ولن تعود، إنما هو حب لطيف رسمته في مخيلتي لوالدي الذي أريده وأتمناه لكن لا وجود له، لأنه في مخيلتي فحسب وليس شيئًا واقعيًا...»

انتظرتْ منه أن يعقب على كلامها بكلمة واحدة لكنه وقف عاجزًا عن الحديث أو حتى النظر نحوها...

58

-«أحضرت الشاي»

قطع صمتهما صوت جدها وهو يحمل أكواب الشاي واقفًا على الباب، حدق فيهما لثوان محاولا فهم ما حدث للتو وعندما عجز بادرهما متسائلا:

-«هل فاتني الكثير؟!»

-«إطلاقًا»..

قالها والدها وهو يأخذ أحد أكوب الشاي، غمز لها وهو يكمل:

-«كانت سلمى تعبر لي عن سعادتها بعودتي، وأنا كذلك أخبرتها كم اشتقت لها».

تجاهلته تمامًا وقالت وهي تتجه خارجًا:

-«اسمح لي أن أذهب يا جدي فأنت تعرف أني لا أشرب الشاي في المساء، لكن يبدو أن والدي يفعل...»

-«إلى أين تذهبين؟»

همس لها جدها متوسلا لكنها أجابته بصوت واضح:

-«سأذهب إلى غرفتي لأرتاح قليلا... فهذا ضيفك أنت وليس ضيفي...»

-«سلمى!»

-«لا تقلق عليَّ! فقد تعودت أن أعتني بنفسي جيدًا، وكما قلت أنت سابقًا سنتجاوز هذه المحنة سويًا - أنا وأنت فقط - وفي حال كنت غير راغب في الوقوف معي أو تشعر أن المسؤولية أكبر مما تتحمل فلست مجبرًا على فعل المزيد...»

-«لا تقولي هذا الكلام، فأنت ابنتي..!»

ابتسمت له وغادرت غرفة الجلوس بهدوء

59

أغلقت عليها باب غرفتها غير آبهة لنظرات الذهول التي خلفتها على وجه أبيها الذي عرف الشيب طريقه إليه جيدًا فبدا أكبر بكثير مما تخيلته، أو نظرات الخيبة التي تجلت في عيني العجوز وهو يرى خطته لمفاجأتها تفشل بتلك الطريقة.

لم تفكر في لومه أو حتى معاتبته على محاولته استجداء اهتمام والدها بها، فلوقت قريب كانت هي نفسها غير قادرة على تغيير مشاعرها نحوه، اعتقدت لوقت طويل أنها ما أن تراه حتى ترمي بنفسها في أحضانه، وتتشبث به بيديها وروحها، لكن كل مشاعر اللهفة تبخرت بمجرد أن تقلصت المسافة بينهما لبضع خطوات.

ما أن رأته واقفًا أمامها حتى تلاشت ذاكرتها كلها.. مُخَلِّفَةً مشهدا واحدا فقط، تلك اللحظة التي رحل فيها دون التفكير ولو لثانية بالالتفات إلى الخلف ...

نعم لا تزال تحبه وتشتاق إلي حضنه الدافئ فهذا ما تعجز عن تجاهله لكن ثقتها به اهتزت ولا تستطيع أن تعيدها كما كانت، تدرك جيدا أنه لن يكون سهلا عليها أن تعيد بناء جسر تلك الثقة مجددًا وبنفس الدرجة، والأمر خارج كلياً عن إرادتها.

مهما كان ما تمر به الآن فلابد وأن تتجاوزه دون التوسل لأحد، ودون الاعتماد على أحد سوى ربها ثم نفسها، ستقف على قدميها

من جديد، وتواصل طريقها بثبات، قد تنجح محاولات جدها لإعادة والدها لها أو إعادتها لحضنه – ربما! – لكن قبل ذلك عليها أن تتعود مواجهة مشاكلها بنفسها دون انتظار العون من الآخرين ....

يكفيها بحثًا عن قوة خارجية تستند عليها، مهمشة قوتها الداخلية، فمهما اقترب الناس منا، ومهما بقوا الى جوارنا فلابد وأن يغادرونا عاجلا أم آجلا، بإرادتهم أو رغمًا عنهم، على الأقل حين تكون قوية بما فيه الكفاية، إن فكر أحدهم في تركها فلن يسبب لها ذلك التصدع الذي يصعب عليها التعامل معه ومداواته...

60

أخذت صورة والدتها وراحت تحدق فيها بعينين دامعتين، كم تشتاق إليها، كانت تعتني بها جيدا رغم كل شيء، ضمت صورتها إلى صدرها بعد أن أودعتها قبلة طويلة تاركة لدموعها المجال أن تسطر على خديها مشاعر اشتياق وحنين لا حد لها.

-«هل بإمكاني الدخول!»

قطع عليها جدها دموعها بصوته الحنون وهو يطل برأسه من شق الباب، وقبل أن ينتظر جوابها، دخل وهو يحمل كوبا من الحليب وضعه بين يديها وهو يقول معاتبا:

-«أصبحت لا تشربين الشاي في المساء ولا أدري منذ متى، فأحضرت لك كوبا من الحليب...»

ابتسمت له وسألته محاولة إظهار اللامبالاة بين حروفها:

-«هل رحل؟»

-«طبعا»

وعندما لم يجد منها ردا أكمل مستدركا:

-«قال إنه ذاهب لزيارة قبر والدتك وسيعود للمبيت هنا، وبما أن حفيدتي الصغيرة قد احتلت غرفته فعلي أن أذهب الآن لأجهز له

مكانا ليبيت فيه...»

ابتسم لها وقبل أن يخرج قال:

-«أنـت واهمة لو جـال بخاطرك أنـه سيتخلى عن ابنته بهذه السهولة! نامي الآن يا صغيرتي... كل شي يكون بخير»

أقفل الباب خلفة وتركها لشرود طويل...

61

ما أن غادر جدها حتى تحرك بداخلها إحساس يشبه وخز الإبرة في حدته وألمه... كيف جاز لها أن تتصرف مع والدها بتلك القسوة...؟ وكيف هوت في لحظة غاضبة كئيبة هامتُه الشامخة التي استظلت بظلالها الوارفة وهي تتصفح ألبوم صوره، وتبحر في عوالم كتاباته ومذكراته مثل نورس ينتشي وهو يبسط جناحيه قريبا من موجات البحر المتواصلة...؟ كيف جاز لها ذلك؟؟

انتفضت كمن لسعها عقرب... لم تكن تلك الدقائق التي توهمت فيها أنها اتخذت قرارا لا رجعة فيه بقادرة على أن تقطع الحبل الروحي بينها وبين والدها والذي امتد لأعوام طويلة عبقة بالحب والاشتياق وذكريات طفولة نحتت بين أروقة ذاكرتها ... تذكرت ما كان يردده خطيب الجمعة باستمرار: «تخلقوا بأخلاق الله، والله غفور رحيم، فلا أقل من أن نمنح المغفرة للآخرين مهما أخطأوا في حقنا، أو مهما ظننا أنهم أخطأوا في حقنا..»

شعرت برغبة جامحة في وقف أزيز محرك المشاعر الناقمة، المشاعر اللوامة، رددت بأمل:

-«ليته يستوعب ما بي من غضب وعتاب!... فلست جمادا لأنسى كل ما حصل لي بسرعة، لن أكون قاضية معه .. بل لست مستعدة لأن أمارس دور المدعي العام... فكل ما حلمت وأحلم به أن أكون

طفلة تحضنني أجنحة مفعمة بأريج الأمومة والأبـوة، فـأنمو نموا تباركه الأقدار...»

تنهدت بعمق وهـي تضع رأسـهـا على مخدتها وراحـت تردد بصدق:

-«ليته يعود هذه المرة كما وعد ...»

أغمضت عينيها... وبانسيابية بـدأت مخيلتها ترسم سيناريو لقائهما القادم الذي ينتظرهما مع إشراقة الصباح الوليـد.



سلسلة إصدارات روافد

١- الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة.

د. عبد العزيز برغوث.

٢- عينان مطفأتان وقلب بصير (رواية).

د. عبد الله الطنطاوي.

٣- دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية.

د. محمد إقبال عروي.

٤- إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية.

د. الطيب برغوث.

٥- ظلال وارفة (مجموعة قصصية) .

د. سعاد الناصر (أم سلمى).

٦- قراءات معرفية في الفكر الأصولي.

د. مصطفى قطب سانو.

٧- من قضايا الإسلام والإعلام بالغرب.

د. عبد الكريم بوفرة.

٨- الخط العربي وحدود المصطلح الفني.

د. إدهام محمد حنش.

٩- الاختيار الفقهي وإشكالية تجديد الفقه الإسلامي.

د. محمود النجيري.

١٠- ملامح تطبيقية في منهج الإسلام الحضاري.

---------------- د. محمد كمال حسن.

١١- العمران والبنيان في منظور الإسلام.

---------------- د. يحيى وزيري.

١٢- تأمل واعتبار: قراءة في حكايات أندلسية.

---------------- د. عبد الرحمن الحجي.

١٣- ومنها تتفجر الأنهار (ديوان شعر).

---------------- الشاعرة أمينة المريني.

١٤- الطريق... من هنا.

---------------- الشيخ محمد الغزالي

١٥- خطاب الحداثة: قراءة نقدية.

---------------- د. حميد سمير

١٦- العودة إلى الصفصاف (مجموعة قصصية لليافعين).

---------------- أ. فريد محمد معوض

١٧- ارتسامات في بناء الذات.

---------------- د. محمد بن إبراهيم الحمد

١٨- هو وهي: قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم.

---------------- د. عودة خليل أبو عودة

١٩- التصرفات المالية للمرأة في الفقه الإسلامي.

———————— د. ثـريـة أقصـري

٢٠- إشكالية تأصيل الرؤية الإسلامة في النقد والإبداع.

———————— د. عمر أحمد بو قرورة

٢١- ملامح الرؤية الوسطية في المنهج الفقهي.

———————— د. أبو أمامة نوار بن الشلي

٢٢- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة.

———————— د. حلمي محمد القاعود

٢٣- جسور التواصل الحضاري بين العالم الإسلامي واليابان.

———————— أ. د. سمير عبد الحميد نوح

٢٤- الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية.

———————— د. أحمد الريسوني

٢٥- المرتكزات البيانية في فهم النصوص الشرعية.

———————— د. نجم الدين قادر كريم الزنكي

٢٦- معالم منهجية في تأصيل مفهوم الأدب الإسلامي.

———————— د. حسن الأمراني

———————— د. محمد إقبال عروي

٢٧- إمام الحكمة (رواية).

———————— الروائي/ عبد الباقي يوسف

٢٨- بناء اقتصاديات الأسرة على قيم الاقتصاد الإسلامي.

أ.د. عبد الحميد محمود البعلي

٢٩- إنما أنت... بلسم (ديوان شعر).

الشاعر محمود مفلح

٣٠- نظرية العقد في الشريعة الإسلامية.

د. محمد الحبيب التجكاني

٣١- محمد ﷺ ملهم الشعراء.

أ. طلال العامر

٣٢- نحو تربية مالية أسرية راشدة.

د. أشرف محمد دوابه

٣٣- جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم .

د. حكمت صالح

٣٤- الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية.

د. عبد الرحمن العضراوي

٣٥- السنابل... (ديوان شعر).

أ. محيي الدين عطية

٣٦- نظرات في أصول الفقه.

د. أحمد محمد كنعان

٣٧- القراءات المفسرة ودورها في توجيه معاني الآيات القرآنية.

________ د. عبد الهادي دحاني

٣٨- شعر أبي طالب في نصرة النبي ﷺ.

________ د. محمد عبد الحميد سالم

٣٩- أثر اللغة في الاستنباطات الشرعية.

________ د. حمدي بخيت عمران

٤٠- رؤية نقدية في أزمة الأموال غير الحقيقية.

________ أ.د. موسى العرباني

________ د.ناصر يوسف

٤١- مرافىء اليقين (ديوان شعر).

________ الشاعر يس الفيل

٤٢- مسائل في علوم القرآن.

________ د. عبد الغفور مصطفى جعفر

٤٣- التأصيل الشرعي للتعامل مع غير المسلمين.

________ د. مصطفى بن حمزة

٤٤- في مدارج الحكة (ديوان شعر).

________ الشاعر وحيد الدهشان

٤٥- أحاديث فضائل سور القرآن: دراسة نقدية حديثية.

د. فاطمة خديد

٤٦- في ميـــزان الإسـلام.

د. عبد الحليم عويس

٤٧- النظر المصلحي عند الأصوليين.

د. مصطفى قرطاح

٤٨- دراسات في الأدب الإسلامي.

د. جابر قميحة

٤٩- القيمُ الروحيّة في الإسلام.

د. محمّد حلمي عبد الوهّاب

٥٠- تـلاميـذ النبـوة (ديوان شعر).

الشاعر عبد الرحمن العشماوي

٥١- أسماء السور ودورها في صناعة النهضة الجامعة.

د/ فـؤاد البنـا

٥٢- الأسرة بين العدل والفضل.

د. فريد شكري

٥٣- هي القدس... (ديوان شعر).

الشاعرة: نبيلة الخطيب

٥٤- مسار العمارة وآفاق التجديد.

م. فالح بن حسن المطيري

٥٥- رسالة في الوعظ والإرشاد وطرقهما.

الشيخ محمد عبد العظيم الزُّرْقاني

٥٦- مقاصد الأحكام الفقهية.

د. وصفي عاشور أبو زيد

٥٧- الوسطية في منهج الأدب الإسلامي.

د. وليد إبراهيم القصاب

٥٨- المدخل المعرفي واللغوي للقرآن الكريم.

د. خديجة إيكر

٥٩- أحاديث الشعر والشعراء.

د. الحسين زروق

٦٠- من أدب الوصايا.

أ. زهير محمود حموي

٦١- سنن التداول ومآلات الحضارة.

د. محمد هيشور

٦٢- نظام العدالة الإسلامية في نموذج الخلافة الراشدة.

د. خليل عبد المنعم خليل مرعي

٦٣- التـراث العمـراني للمدينة الإسـلامـيـة.

د. خالد عزب

٦٤- فراشات مكة... دعوها تحلق.. (رواية).

الروائية/ زبيدة هرماس

٦٥- مباحث في فقه لغة القرآن الكريم.

د. خالد فهمي

د. أشرف أحمد حافظ

٦٦- محمود محمد شاكر: دراسة في حياته وشعره.

د. أماني حاتم مجدي بسيسو

٦٧- بوح السالكين (ديوان شعر).

الشاعر طلعت المغربي

٦٨- وظيفية مقاصد الشريعة.

د. محمد المنتـار

٦٩- علم الأدب الاسلامي.

د. إسماعيل إبراهيم المشهداني

٧٠- الكِتَاب وصنعة التأليف عند الجاحظ.

د. عباس أرحيلة

٧١- وسائلية الفقه وأصوله لتحقيق مقاصد الشريعة.

د. محمد أحمد القياتي محمد

٧٢- التكامل المعرفي بين العلوم.

د. الحسان شهيد

٧٣- الطفولة المبكرة الخصائص والمشكلات.

د. وفقي حامد أبو علي

٧٤- أنا الإنسان (ديوان شعر).

الشاعر يوسف أبو القاسم الشريف

٧٥- مسار التعريف بالإسلام في اللغات الأجنبية.

د. حسن عزوزي

٧٦- أدب الطفل المسلم.. خصوصية التخطيط والإبداع.

د. أحمد مبارك سالم

٧٧- التغيير بالقراءة.

د. أحمد عيساوي

٧٨- ثقافة السلام بين التأصيل والتحصيل.

د. محمد الناصري

٧٩- ويزهر السعد (ديوان شعر).

الشاعر محمد توكلنا

٨٠- فقه البيان النبوي.

أ. محمد بن داود سماروه

٨١- المقاصد الشرعية للوقف الإسلامي.

د. الحسن تركوي

٨٢- الحوار في الإسلام منهج وثقافة.

أ. د. ياسر أحمد الشمالي

٨٣- أسس النظام الاجتماعي في الإسلام.

د. عبد الحميد عيد عوض

٨٤- حروف الإبحار (ديوان شعر).

الشاعر عصام الغزالي

٨٥- معالم منهجية في تجديد خطاب الفقه وأصوله.

د. مسعود صبري

٨٦- قبسات من حضارة التوحيد والرحمة.

أ. ممدوح الشيخ

٨٧- لقاء قريب (رواية).

الروائية مياسة علي عبدة النخلاني

نـهــر متعـــدد.. مـتــجـــدد

هــذا الكتــاب

... أسوأ ذنب قد يقترفه الإنسان بحق نفسه أن يسيء فهمها، ويخنق أنفاسها بتهمة أنها ليست قوية بما فيه الكفاية...، فليست القوة بالصوت المرتفع أو الشخصية الصلبة فقط.

وأسوأ من ذلك نبذ الجمال الحقيقي الذي يمد الإنسان بقوة خفية نابعة من أعماقه، ساعيًا وراء قوة مصطنعة ليست أصيلة فيه...، فلا هو حافظ على جماله الخفي، ولا هو تمكن من إحكام قبضته على ما اكتسبه...



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية
www.islam.gov.kw/thaqafa